رواية

فواصل الشوق

عباس مدحت البياتي

فواصل الشوق

فهرسة أثناء النشر
دار الزيتونة للنشر والتوزيع
3025 / 2 / 1914-ق

الزيلعي، عباس مدحت محمد

فراسل الدوري: عباس مدحت محمد الزيلعي - صاحب دار الزيتونة للنشر والتوزيع 3025

ص ؛ ؛ ؛

ر ؛ ؛ 978-9923-68-872-3

فراسلات / الزيتونة للنشر / الأدب العربي / الشعر الأمريكي / الشعراء / الشعر الأمريكي/

يتحمل المؤلف كامل المسؤولية القانونية عن المحتوى المقدم ولا يعبر هذا المصنف عن رأي دار الزيتونة للنشر ، أو تعهد بتبنيه أو تحمل

Copyright ©
All Rights Reserved

جميع الحقوق محفوظة

ISBN 978-9923-68-872-3

لا يجوز نسخ أي جزء من هذا المصنف أو تخزينه في أي نظام يمكن من استعادته بأي وسيلة سواء كانت إلكترونية أو ميكانيكية أو بالتصوير أو بالتسجيل أو خلافه دون الحصول على إذن كتابي مسبق

عباس مدحت محمد الزيلعي
مدير التحرير: عباس مدحت محمد الزيلعي
[illegible]
[illegible]
[illegible]
[illegible]

إهداء

أهدي روايتي الجميلة إلى زوجتي الغالية وإلى كل مغترب ومهاجر وإلى القارئ العزيز.

ملاحظة: هذه الرواية لا تمت للواقع بصلة، إنها محض خيال ليس إلا.

المؤلف : عباس مدحت البياتي

1- العقدة

الهجرة من وطنٍ مثقلٍ بالعُقَد

كان الصمت قد خيّم على الأفواه بشكل مرعب ومفاجئ، حتى بدا وكأن الظرف ذاته قد أوعز بانفجار بوتقة الصبر دون سابق إنذار، نتيجة مغالاته وشجونه التي لم يعد بالإمكان احتمالها. كأننا بالونة لم تحتمل لهيب الشمس، أو بشرًا لم يحتملوا وهج الواقع الذي تناثر سخطه كغبارٍ في العيون.

عندها طنت ذبابة فكرة الهجرة في أذني، جاءني هاجس من الأعماق يحثني على الحركة، على تغيير المكان والمسار والقدر قبل أن تفلت دقائق العمر من بين الأصابع. زرعت الفكرة قدرةً في جوارحي، دفعتني إلى التمادي، إلى المبادرة، إلى رفع سقف قدري، والبحث عن الأمن والسلام في أرضٍ غريبة، دون تخطيطٍ أو برمجة. كلٌ سعى حسب رؤيته وتحليله للواقع، فركبت موج الفكرة دون تفكير، باحثًا عن مخرجٍ للسلام، عن لسعة هربٍ قد أندم عليها، وقد أنجح في صيانة الذات من عبثٍ يحيط بي.

بصبرٍ وخمول، تبعت تلك الإشارة الكهرومغناطيسية التي دغدغت خاصرة الفكرة، ولمعت في ذهني كوميضٍ يوحي بضرورة الإسراع في تغيير منهج الحياة، وفضّ كيس الصمت الذي امتلأ بطقطقة الوجل. تمسكت بالفكرة كفقاعة

نجاة، أقنعت نفسي بالتحرر، بالسلام، بالحرية، خلف حلمٍ كنت أصبو إليه في وطني.

بدأت العقد تتشكل مع احتلال العراق في 9 نيسان 2003، حين سقط تمثال الرئيس في ساحة الفردوس، معلنًا بداية حقبةٍ بغيضة. منذ ذلك اليوم، بدأت الأمور تتسخ، وانحدرت حياة العراقيين نحو الدرك الأسفل. لم تكن الفرص متاحة لإصلاح الشأن، فجارينا القدر على أمل أن يتحسن الوضع، لكن الرياح جرت بما لا تشتهي النوايا. تفاقمت الفتن، وتكاثرت الأحزاب والميليشيات كالبكتيريا، تتصارع على كعكة العراق، غير آبهةٍ بالشعب المنكوب.

في ظل هذا الانحدار، قررت الهجرة إلى الإمارات في 12 شباط 2006، هاربًا من الطائفية المغيظة، منتظرًا على رصيف الصبر أن تمر قاطرة السلام. لكن الوطن لم يهدأ، ولم تنتهِ الحقبة المظلمة. تجددت الفكرة في رأسي، بعد أن يئست من الإصلاح، إذ بات الخراب يزحف على الجدران والمزارع والمصانع، وسادت الفوضى، وعمّ الدمار.

عانينا من الإذلال، من فقدان الهوية، من التشتت والخوف، منذ دخول المحتل واستمرار عبثه. عشنا تحت هامش الحياة، كالدجاج المعد للذبح، في وطنٍ مشلولٍ بالعُقَد الطائفية والشعارات الزائفة، وطمع الدول القريبة والبعيدة. لم نستطع رفع الأغلال عن أعناقنا، ولا النقم عن قدرنا، ولا أن نرفع شأن الوطن بين الأمم.

في ظل هذا الظرف الموارب، تبعت رنة الصوت القادم من الأعماق، دون يقين، دون مصيرٍ مضمون، فاقدًا زمام أمري داخل أروقة الوطن. جاء قرار الهجرة بحثًا عن قدرٍ يرفع من شأني في أرضٍ غريبة، بعد أن غلبني اليأس والعجز، رغم الغصة التي بقيت تلهب الفؤاد. على ضوء المثل القائل "شجابرك على المر، غير الأمر منه"، تأملت أن أرتقي بالحالة الظرفية إلى الهدوء وسمو الذات. لكن الذهن بقي حائرًا، عاجزًا عن اتخاذ قرارٍ يفضي إلى فرد الذات عن مجمع العُقَد، دون أن نتمكن من إثراء أنفسنا بأحلامنا، أو رفع آثار القيود التي تلتف حول أعناقنا.

حين تجد نفسك في دوامة من المتاهة والتخبط، تشعر أنك بين المطرقة والسندان، فتبحث عن منفذٍ يقيك شر البلية، تهرب من الوجوه المرعوبة التي تشبهك، ومن الطامعين والمتنفذين، ومن سلطان الوحدة والأقدار المبهمة. كنت واقفًا على جرفٍ هار، بين السقوط في هوة الرعب، وبين أن تجرفني الأقدار، فاخترت الفرار قبل أن تحل الطامة.

صارت أصواتنا ناشزة، لا يُسمع لها صدى، وانتُزعت منا الكرامة والمكانة والإمكانات لصالح قوى غاشمة. أضحى الفرد منا يبحث عن ذاته بين الوجوه الدخيلة، دون أن يدرك أنه أصبح جزءًا من المعضلة الجديدة، دون أن يجد فيها نية قبول أو رضا.

اختلطت علينا الأوراق، وضاعت أحلامنا البسيطة بين زحمة الأقدام والألوان العبثية. كنا نتنفس الصعداء من منافذ ضئيلة،

نرتـدي البـؤس رداءً، والـوهم وشـاحًا، والعنـاء قناعًـا. أضـحينا كتلاميذ المدارس، نرتدي الحزن زيًا موحدًا.

التبـاين الطـائفي، والاعـتلالات الجانحـة، أعطـت صـفة إضـافية لقـرار الهجـرة، فصـلت بـين الوصـوليين والـوطنيين. أخرسـت ألسـن العدالـة، وارتفعـت أصـوات الطائفيـة والجريمـة. دخلنـا عنـق الزجاجـة عنـوة، تحـت وقـع السـوط، وتجردنـا مـن قيمنـا وعفتنـا. صـارت المناصـب تُمـنح لمـن لا يسـتحق، حسـب المحسـوبية والانتمـاء الطـائفي، فحـين تـرى تـدهور الـوطن، تشعر بغصة، وإذا انفجرت، قد تودي بك في لحظة غفلة.

صـار الحرامـي شـريفًا، والقـواد محترمًـا، والحـارس وزيـرًا، والجنـدي قائـدًا. لـم يعـد الفـرد يـأمن علـى نفسـه وأطفالـه، مـن الجـار والقريـب، طفـح الكيـل وبلـغ السـيل الزبـى، لـم تعـد لـدينا القـدرة علـى مجـاراة النـزف الحاصـل فـي جسـد الـوطن، عنـدها فقصـت بيـوض الفسـاد وتكـاثرت فـي مجـاري الحيـاة كغـزار البعـوض والـذباب، غـزت النفـوس وأفشـت السـموم فـي الأسـر والابدان.

مـع شـرع الاحـتلال الأمريكـي البريطـاني للعـراق فـي 2003/3/19 مـع مـرور الايـام تفاقمـت العقـد، مـع ارتجـاج سـقف الطائفيـة سـافرتُ للإمـارات، بقيـت أعـاني مـن غربـة الـنفس حتـى دخـول العناكـب والعقـارب بـين صـفوف الشـعب؛ حتـى لاك المحتـل سـمومه بصـحن الـوطن بتفعيـل قـبح الطائفيـة والقوميـة. وبالـذات بعـد فسـاد داعـش فـي سـنة 2013- 2014 الـذي زاد الغلـة كنـت قـد هـاجرت لأروبـا، لتتبلـور الفكـرة فـي ذهنـي بشـكل

قطعي بعد أن وجدت الحياة قد انحسرت منافذها في منفذ الهرب.

يقول جيفارا في استياءه وتبرمه من الخونة:....

" أذا استطعت أن تقنع الذبابة بأن الزهور أفضل من القمامة، ممكن أن تقنع الخونة بأن الوطن أغلى من المال".

بين عبث الواقع وقدسية الذات

ذلك ما دفع الفكر إلى الانحدار خلف فكرة تغيير المكان، بعدما غاب التنماز بين بساطة المثقف وتعقيد الجاهل، وصارت المناصب تُفصّل على مقاس الجهل، وتُقصى عنها قيافة العقل والمعرفة. لم يعد هناك فاصل جاد بين العيث والشذوذ، بين التسويف والعبث، بين التجرد والمصلحة الذاتية. تلاشى دور أصحاب الشهادات، وغُيّب صوتهم في إدارة شؤون الوطن.

أصبحت لوحة الوطن مهموزة، مشوهة في أعين الجميع، غجرية، مبهمة، مشوبة بالشك، ماجنة بين الطابع السريالي والكولاجي، لا تفيض بشيء من الواقعية أو الرومانسية التي كنا نعيشها قبل أن يدنس المحتل أرضنا. باتت صورة الإنسان العراقي تتعدد وتتشظى في بورتريهات متداخلة وغامضة، تعكس شذوذه عن وطنه، وانفصاله عن ذاته.

هذه الجوانب نمت في أعماق النفس شبكة من العقد، حتى غدا الوجود داخل الوطن بلا معنى، وبات الحفاظ على قدسية النفس هو السبيل الوحيد لصون قدسية الوطن. لذلك تخطيت

حدودًا مفلجة، حفاظًا على صورة الوطن الحقيقية في داخلي، من أن تُلوثها ألوان العبث.

أمام هذا الواقع، بدأت أبحث عن وصفة تنقذ النفس، تداويها، وتوجهها نحو غاية أخرى خارج نطاق العبودية والإذلال. أردت أن أعالج وحدتي، تلك التي أعيشها رغم وجودي بين أسرتي، أن أكسر قيد الفزع الذي تسلل إلى جلدي وعقلي كبكتيريا العفن، وأنا أعيش في أحضان وطنٍ لم يعد يحتضنني.

صرت أبحث عن الميرة التي أشتاق إليها، عن صرة الأحلام التي ترفع من شأني، لأحافظ على وجودي ومكانتي كإنسان حر فوق هذا الكوكب. أصبحت كمن يرتق تمزقات ثيابه بحججٍ واهية، يتبع قائمة الصمت والسلوك العام في وطنٍ مخروم، قانطًا في موضعٍ بين سدادة الفرضة والشعيرة، يتأمل أن تتحرر الذات من عبث الظرف قبل أن يُجهز علينا.

في تلك الظروف، قررت أن أمنح نفسي فرصة للتجرد والتصالح مع الذات، بعدما تجاوزت العقد حدود المنطق. صرت أبحث في لوحة الوطن عن منفذٍ أنقذ به نفسي وعائلتي من دوامة الفوضى، تلك التي خلخلت النفوس أكثر مما أظهر الوطن من تجرد وإهمال.

2- القرار

أصل الحكاية... حين قررت الهجرة

ما إن تداولت قرار الهجرة مع زوجتي، بحثًا عن صيغة جديدة للحياة، خاصة بعد أن عاثت ميليشيا داعش خرابًا في البلاد، حتى انفرجت أساريري. طرحت حينها فكرة التصالح مع الذات والوطن، وسط تناقضات وتجاذبات لم ينتهِ نزفها بعد. رست الأمور على جدولة جديدة لحياتنا، فأشبعت الرغبة بالرغبة، وأطّرت الهدف بالأمنية، وزكّيت الذات بالرجاء، باحثًا عن أفقٍ يتكفل بمستقبلنا، ينقلنا إلى نقطة خارج قوقعة العقد وتجاذب الأحداث.

تمسكت بالفكرة، أدور حولها كدبور يبحث عن مصل الغاية لنفسه. احتد الجدل في داخلي، ارتقيت أفق الظن، وتبلورت الفكرة في ذهني، أضحت كشمس تضيء ظنوني، وتراءى لي الهدف قريبًا، كاللحظة المارقة بين الرمش والعين.

لم أكن على يقين من نجاح المهمة، لكنها كانت محاولة لإنقاذ ما تبقى من حلم. تركت قرار الهجرة معلقًا على غابر الزمن، تجلده الأيام والشموس، حتى استوت الفكرة في ذهني. لم يكن القرار سوى خرافة أحلام طرأت على نافذة البال، حينها سجى القلب على بساط الشوق، في خضم مدارات الحلم والخيال. ركبت مركب الجنون والمحال، تاركًا خلفي سارية القدر تعبث

بهـا ريـح الأهـواء، متـأملًا أن أجـد مـلاذًا آمنًـا خـارج متاهـة الوطن.

كانـت الحيـاة قـد تقرّحـت، وأصـفرت أوراقهـا داخـل سـور الـوطن. المسـاند التـي كنـا نسـتند إليهـا تآكلـت وصـدئت، ولـم أفكـر بـأوداج السـفر إلا بعـد أن لسـعت النـار أصـابع القـدم. بـدت الفكـرة كندبـة طفحـت فـي وجـه الحيـاة، شـوّهت صـورة الغـد فـي ذهنـي. شـرعت خلفها بصمت وقناعة، وأنا مكبّل بصبرٍ مرير يشقيني.

مـن تلـك اللحظـة، صـرت أنظـر إلـى الومضـة المتخفيـة خلـف السـدم بأمـل ويقـين، عسـى أن تعيـد لـي ولعـائلتي الابتسـامة الدافئـة. فـاض عنـادي حتـى فـاق طـاقتي، ولـم أجـد عنـاءً فـي مركب الإبحار يشكمني سوى فراق زوجتي الحبيبة والوطن.

كنـت أجلـد الفكـرة بـالفكر، والشـك بـاليقين، حتـى أبيضّـت صـفحة الغـد فـي نظـري، وغـدا لونهـا قريبًـا مـن لـون الحلـم الـذي أبتغيـه. هجسـت بقـرب الشـمس، وولـوج الصـبح. دعكـت الصـبر بالصـبر حتـى رقّ ملمسـه، صـارت الفكـرة تحاصـرني مـن كـل الجوانـب. أحيانًـا أهجـس بهـا طينًـا لازبًـا تحـت قـدمي، وأحيانًـا مسـامير صدئة في الذهن، كأنني أخطأت في اختيار القرار.

كانـت عمليـة الفـراق والشـوق معقّـدة، حتـى أضـحت بالنسـبة لـي أشـبه بعمليـة التركيـب الضـوئي للنبتـة. ولّـد الفـراق فراغًـا فكريًـا وعاطفيًـا بينـي وبـين زوجتـي، كمـا ولّـد **فواصـل شـوق** حاصـرتني فـي زاويـة الحبيبـة، وكـأن الكـون كلـه يقـف علـى وتـد تلـك العلاقـة التي تجمعني بها.

هكـذا تـدحرجت حلقـة الـزمن أمـامي، وأنـا أتبـع اسـتقرارها دون أن تسـتقر، ودون أن أمسـك بـاليقين. يومًـا بعـد يـوم، ازدادت تقرّحـات شـكي ويقينـي بـالقرار، وكـأن المسـافة اتسـعت بـين الحلـم والواقـع. صـارت تـزداد شسـوعًا مـع اللحظـة المارقـة فـي الخيـال، وتـزداد غموضًـا مـع شـروع الخطـوة فـي تطبيـق فكـرة الهجـرة. ومـع تـداول الأيـام، دخلـت الأمـور فـي نفـق الحـرج، حتـى اسـودّت صفحات الزمن في نظري.

وإليكم أصل الحكاية... مع الأيام.

3- قصة السفر

كنتُ قد أنهيتُ لتوّي إجراءات تصديق جواز خروجي من مطار أبوظبي، وذلك بختم الجواز بختم إذن المغادرة، وكان ذلك في يوم السبت المصادف 2015/9/20. اتجهتُ إلى صالة الانتظار، وجلستُ في أحد جوانبها على كرسيٍ خشبيٍ منفرد، منجّدٍ بأجود الخامات، منتظرًا لحظة ولوجي إلى داخل الطائرة. وما إن مرت الدقائق، حتى اكتظت الصالة الواسعة بالمسافرين، ولشدة الزحام امتلأت الكنبات والكراسي عن بكرة أبيها، بحيث نادرًا ما تجد فيها كرسيًا أو مقعدًا شاغرًا.

كان المنظر، إلى جانب السجدة الأخيرة التي يختلج بها السفر، هميمًا من وجهة نظري، دبقًا، ثقيلًا، تراخى فيه صمتٌ مدقع، أوطن مخالب الشك في أدمة الذاكرة، وأصاب رقائق الصبر بصدى العناء والملل، نتيجة فراقي لغاليتي، حبيبتي، وزوجتي. لحظات صمتٍ وسكونٍ حملت في أسفارها الكثير من الغيض والفيض، اهتز لها العقل والبدن، وشطّت الروح عن الفكرة، حتى صرتُ أهجس بذاتي تهرب من ذاتي إلى حيث التيه والخواء، تحتضر، وفي ظني وضميري يخفق هاجس غياب الحبيبة. حينها سهوتُ في أتون الفكرة التي أبغي تطبيقها دون إرادة مني، ألا وهي البحث عن مأوى جديرٍ يلمّنا، عن استقرارٍ في جوف الغربة...

بتُّ أعيش صراعًا بين واقعي التعيس وحلمي الرغيد الذي أتأمله، وقد وجدتُ دوافع داخلية تشجعني على تجاوز عقدة

السفر بشيءٍ من التضحية والنسيان وعدم المبالاة، لتأمين خط المستقبل الذي أراه قد انقطع دابره في وطني، وأضحى خطًا أجوف، دميمًا، لذا بتُّ أبحث عن بديلٍ له في جوف غابةٍ مجهولة من الغربة.

وأنا في تلك الحيرة من أمري، كان قد شطّ الذهن بين تلك الوجوه المارقة أمامي ووجه زوجتي التي كنتُ قد فارقتها قبل سويعاتٍ فقط، إذعانًا لصوت الغد والمستقبل الذي بات يصرخ في دواخلنا، إضافةً إلى القلق الذي اعترى ذهني بسبب سوء أوضاع الوطن، دون إمكانية العودة إليه، على الأقل في الزمن القريب.

ذلك القلق أرعبني، أصبح له مخالب ذعر، صار كجرس الجداء معلّقٍ في عنقي، يذكرني بأمسي، ويحذرني دون أن يهدأ ضجيجه... هكذا لاعت أذنيّ جلجلة صداه، وأضحى لذلك الصوت لثغة في النفس واللسان، أغشاني بالوعثاء والعناء والقلق وعدم الاستقرار، حتى وأنا أعيش خارج الوطن.

حينها كنتُ قد حجزتُ تذكرة سفرٍ على متن طائرة الإيرباص إلى إسطنبول، والمحددة كرسيها بمقعدٍ برقم 23 من المقاعد العامة، والذي موضعه يتوسط الطائرة، قرب النافذة من جهة القلب.

وأنا جالس في تلك القاعة، لمحت سيدة ثلاثينية، رشيقة، فاتنة، جذابة، تتنقل بخفة بين أرجاء الصالة، تهجس بها شبقة، غرة،

مغنجة بالسحر من رأسها حتى أخمص قدميها. بمفاتنها، هجست بها نسخة كربونية طبق الأصل من زوجتي.

بطلتها ومفاتنها، ضاهت فتنة زوجتي من حيث الشكل والقوام، فلفتت انتباهي من بين جميع النسوة اللاتي دخلن الصالة دون قصد. لأناقتها وحسن قوامها، استقطبت أنظار الجميع؛ حتى خلتها زوجتي، لما بينهما من شبه كبير وتناسق مبهر في الهيئة واللباس، وحتى في قسمات الوجه والسن.

شغلت تلك السيدة كرسياً قبالتي، فحفزت في نفسي شعوراً بالاهتمام، وكأنها الوحيدة التي ستسافر معي في الطائرة. صببت جام همي وقلقي وولعي في كأس فتنتها، حتى أوهنت مشاعري بأنها زوجتي، فزادني ذلك إرباكاً ووهناً وإلحاحاً في معرفة هويتها. أغدقت في متابعة سطوع ذلك الألق بتركيز مفعم بزهدٍ مبالغ فيه، حتى حفظت جلّ ملامحها وثراء مفاتنها عن ظهر قلب.

هجست بذاتي أنني ارتقيت سلم مشاعرها وهي تتصفح صحفها المغنجة بالفتنة، بشيء من الرغبة والتأمل. ومع إلحاحي السليط، شدت انتباهها، وكأنها رقت لملاطفتي ومشاكستي، وكأنها التقت نظيرها، جراء الوحدة والغربة التي شغلتنا. فباتت بين الحين والآخر تمحقني بنظرات خجولة، فيها "إنَّ".

من أول وهلة، مع دخولها الصالة، سحرتني بمفاتنها، وجعلتني أقارنها بقرينتي. خلتها هي ذاتها التي تركتها في

البيت، قابعة بين جدران الوحدة والتأمل قبيل سويعات من الآن. للشبه الكبير الذي تطابق في اللبس والأناقة وتقاسيم الجسد والجاذبية المنبثة من قوامها الرشيق، تملكت مشاعري دون غيرها من النسوة، ودون إرادة مني.

خلتها جاءت تتعقب هوسي لتودعني، وكأن روحها تقمصت روح هذه الفاتنة لتتجسس على سلوكي وطيشي ونزواتي حتى وأنا بعيد عنها. هجست بها قرينة زوجتي، تلبستها كجنية، تلبست زوجتي، تلك التي صورتها تدور في مخيلتي بمرافق الوجوه التي أقابلها، حيث المرأة تبقى مرآة ذاتها وكيانها، متعلقة بروح زوجها وإن غاب عنها زمناً ما.

هكذا بدت لي روحها هفهافة تدور حولي، وأنا أحاول قضم تفاحة فتنتها المعلقة بشجرة ذاكرتي وهوسي ومخيلتي، لتخرجني من لجاجة غروري ونار حماقتي إلى جنتها الواسعة... هكذا وسوس لي الشيطان، وعسى أن تأخذ بيدي تلك الفاتنة إلى باحة جنتها الشيطانية، تعوضني فقدان زوجتي.

خلتها سمكة ترغ في شطآن صمتي، وعلى مرأى من عيني، وبمحيط قلبي، فتتبعت مسارها علناً، علني أصطادها، علها تنقذني من تهيؤاتي وتيهاني وانشغالي بفكرة السفر والحلم الذي أبغي نيله.

هجست بها وقد حلت على رأسي كمطرقة حداد، سرقتني من نزاهتي ووجاهتي إلى عالمها الداني، وتركتني أتطفل على أغصان مفاتنها، وفي فلاة سحرها، كقشة أشتط بها ذاتي من

بين ثنايا وخبايا أرجائها وأشواكها، أسوم نفسي لعالمها الداني بما لي من قيمة ورجولة ودين. كأني بذلك أدلق عالم الود في أحضان زوجتي.

مالت نيتي لمحاولة جمع ثروة مفاتن تلك الجميلة من جهة، والحفاظ على سفر التكوين العائلي المبجل من جهة أخرى، علني أعبر مجاز الغربة والعُقد، بحثاً عن وهدة استقرار وراحة تجمعني بزوجتي.

ما إن جلست قبالتي، حتى هيجت مواجع القلب بفراق الحبيبة، وجنحت الروح إلى أتون الذاكرة، إلى مهاجع الود والطيبة، إلى الشهقة واللهفة، إلى تنهدات الروح ونبذ عقد الوطن ومداهنة جوائه. صارت تثير في الوسط رياح الود، تريق مؤثراتها في صحن الانتماء، وغدت تميس هاجس الأسرة بشكل مباشر، سواء أبينا أم رضينا.

جنحت لتلك الأماسي من الصمت والهدوء والرجاء التي جمعتنا على سفرة الألفة والوداد، إلى الضحكة والنكتة والنزوة والشك والعناد والعكرات؛ نتيجة ولعي وجنوني بها، وتعلقي بسر تلك الأصفاد من السحر والأوتاد التي جمعتنا، حتى في مشاكلنا ونزاعاتنا وعركاتنا. أهجس بها متجذرة بأنفاسي، متعشقة في مسامات جسدي وذاكرتي، ذائبة بروحي، لن تفارق وجدي إطلاقاً ولو قيدتنا الشدائد.

ذلك ما دفعني أن ألوك ملعقة الود بكأس تلك الفاتنة، وجدت روحي تمتطي روحها، وكأني أُهامس روح زوجتي. بدت

النظـرات تنغـرز بسـحر مفاتنهـا، أطرافـي تحـيط خصـرها، دخلـت فـي متاهـة الشـك وأنـا أركـب مركـب الخيـال، بـل هجسـت بهـا وقـد دخلـت فـي صـلب أحلامـي، طافـت فـي فكـري، بـتُّ أتبعهـا كطفـل يتبـع فراشـة فـي جنينـة، عسـى أن أجـد فـي فتنتهـا حـلاوة فـاتنتي، أن أوقـد فتائـل صـبابتها ببريـق مـن قبسـي، لأرتـع بعذوبـة غنجهـا وديبـاج أهوائهـا وقفطـان روحهـا، بـتُّ أعـرك ذاتـي فـي خضم تلك الوقائع التي جذبتني لسرائرها.

وأنـا أحـاول أن أرغ ولعـي بكـأس فتنتهـا، كانـت قـد أصـابت وجـدي بسـهامها، هجسـت بهـا تلاحقنـي سـرًا بمفاتنهـا قبـل أن أخطـو خطـوةً تجاههـا. مـن خـلال نظراتهـا التـي أزفّـت، تحـوك غايتهـا بـين أحـداقها، التمسـت مقصـدها، وكـأن روح زوجتـي هـي التـي تتبعنـي بعـد أن غشـيت بروحهـا. كأنهـا أطرقـت أذنـيّ بصخب ذلك الصمت الدائر بيننا.

بـذلك العنـاء المقسـوم بيننـا، جعلتنـي أسـرح فـي فـيض ذلـك الألـق المشـع مـن وجههـا، وبالجاذبيـة المراقـة فـي ملامحهـا، والمـراءة فـي تقاسـيم جسـدها، بشـيء مـن العجـب والتحـدي. للتنـاص الواضـح والتوافـق الحاصـل بـين فتنتهـا وفتنـة زوجتـي، وبـذات القيـاس والبهـاء، حتـى أنـي هجسـت بـذاتي مأسـورًا بفتنـة زوجتـي دون شك.

وددت التقـرب مـن تلـك القطـة الشـيرازية الأليفـة، النـادرة، المشـبعة بالأنوثـة وجميـل الطلـة، بـتّ أبحـث عـن فرصـة تقربنـي منهـا، تقحمنـي فـي مجـرى أهوائهـا ومحادثتهـا، لغـرض تسـليك الوقـت القـادم، والبحـث عـن سـر لغـز الشـبه الحاصـل بينهـا وبـين

زوجتي من جهة، ودرجة انحراف ذهني في متاهة تلك الفاتنة من جهة أخرى.

مع شذوذ فكري، كنت أتحزب بآيات من القرآن، عسى أن أتخطى مشواري التلاقي بسلام.

تركت عيني تتلصص محيطها، بما يشغلها، تستقطب الفرص المتدحرجة أمامي، بشيء من الرغبة والأناقة والعبثية. فلست ربيبا في تجربتي، ولا حاذقًا بمعزل عن الناس المحيطة بي، ولكن بشيء من البلاهة والحماقة التي ركبتني، عسى أن تسنح لي فرصة حقيقية للتعرف عليها، لأعشق غايتي بتلابيب ديباجها.

كانت تجلس إلى جانبها امرأة عجوز شمطاء من جهة الشمال، ورجل أربعيني أصلع، يرتدي بدلة رمادية ونظارات سوداء، قابعٌ يمينها، كأنه رجل مصدور.

لم تكن لها صلة بهما، لذا تركت أحداقي تحلق في فضاء تلك الفاتنة بكيفية. ولكسر حاجز الجمود الحائل بيننا، تركتها تخزر ملامحها، وتفاضل جسدها بشيء من الشراسة والعبث دون حياء، حتى أني تعجبت كثيرًا من جرأتي التي ماجت في حقل مفاتنها كجدول يشتط طريقه، دون أن أعير اهتمامًا لمحيطي من البشر.

وأنا في تلك اللحظة الرعناء من العناء الذي شاقني، خلتها شمسًا تدور في فلكي، لما فيها من حيوية وتأمل وبهاء وإيباء،

مسروقة من صفاة زوجتي. خلتها جنينة ترتع بخوار أرض بضة، تجذبني إليها، أتنزه بها كيفما أشاء.

كان عليّ تتبع حيثيات مخارجها حتى أدرك غايتي، صرت أدور حولها بتلك النوايا الخبيثة، وبشيء من التطفل، عسى أن أجد لديها ما يعينني على تجاوز حدود الصبر، عسى أن أعبر بها جداول الروتين، وحقل الشك الأصفر الشائك في حدقي. اعتبرتها كتابًا جديدًا أتصفحه، لأسرق منه متعة تغيثني الطريق، وتلمع في ذاتي فكرة السفر. لذا صرت أتبع سرها بشغف، بنهم، وأنا أسير خلف ذلك الشك من الغي دون إدراك. اعتبرتها زهرة توليب تستقطب ذاتي المريضة، صرت أدور حولها كدبور غلس، أود امتصاص رحيقها، وأشم عطر مسكها المضاع.

ذلك ما كان ظاهرًا أمام الملأ، دون أن ينتبه أحد منهم إلى اللغز الدائر بيننا وفي جعبتنا، وعما يكمن في نظرتها من مخاتلة وشراسة نمرة، تتبع مآربي، تحلم بافتراسي، وأنا قابع أمامها كيمامة مسجورة بتلك الفتنة.

تلك الحالة من الطمأنينة راغت في داخلي، جالت في خواطري، جدلت الرغبة بفتائل عينيها الملظتان، رغم الفزع والريبة المرّة التي صرّت بيني وبين حبيبتي، كهاجس بها يخنقني، لعدم إيفائي بالعهد الذي قطعته أمامها على نفسي...

تلك القطة جعلتني أنسى ذاتي المتغطرسة، المدانة بمعاني عزلتها وعزتها، لأتعقب خطوط السحر بذاتي المسكينة،

المستكينة جوارحها أمام وجه ومعالم تلك الحورية، محاولًا اقتفاء أثر جنوحي لأنوثتها بأثر جنوح ذاتها في رجولتي.

هكذا جعلتني أنشغل بها، صرت أتبعها دون يقين، بتوافق رغبتي مع رغبتها، محاولًا إسناد ذاتي بذوات أخرى نائمة بداخلي أو متلبسة بها، أحيانًا أشعر أنني مركّب من عدة شخصيات، أينما وضعت نفسي تلبست الحالة والشخصية الجديدة. فهي جديرة بتقمص الحالة الطارئة كيفما تكون، تصلح لتمثيل الدور بجدية عالية.

أظنني بارع في مجال التمثيل، أتمكن من تقمص كل الأدوار وتقليد الشخصيات بحرفية. أجد في ذاتي شخصية الأستاذ والطالب والمتسول والمخمور والعاطل والمخبول والراقص والسياسي والمثقف والراقي، مجتمعة في نفس اللحظة، في نفس واحدة.

أنا ممثل بارع، أستحق جائزة الأوسكار. لذا كانت زوجتي تحتار في تشخيص شخصيتي المتقلبة، وذلك ما جعلني أطاوع هوى الظرف والأدوار المناطة إليّ، مع التحكم بتفاصيل الغاية المراد صيرفتها، حتى أصل بذاتي إلى شاطئ الغاية برفقة من أهوى، دون كلل أو ملل.

لا أدري إن كنت مميزًا في هذا المجال بين البشر، أم أنها حالة اعتيادية تفسر خصائصي، أم حالة اعتباطية غثيثة أتقمط بها دون إرادتي. وما تلك التي تعلقت بها سوى وسوسة شيطان، ذكّرتني بجنوني وولعي وهيامي وغرامي بزوجتي، لذا

تماديت في غيي تجاه تلك القطة التي لا أستطيع فك أنشوطة عقدها عن ساقيّ، لأنها تحمل في غيّها جمرات غنج حبيبتي، وكل ظني أن أكون جديرًا بها، أن أستكشف أسرار تلك الفتنة وما يخفق خارج حدود فتنة زوجتي.

ذلك الشيطان ذكّرني بلون الشبق الذي لا تنطفئ نار جمره في صدري وحدقي. لم يكن فراق حبيبتي فراق وداع، بل فراق لقاء وحلم وأناة، فراق صمت وذهول وغزل يغويني. ما فارقتها إلا لتجديد لقائها، لأحتضنها بشبق يفوق الذي أكنه لها، لأشتاق إليها وأعود بسحر يرفأ جنوني بها، لأعيش بقية عمري بين الجفن والحدق، لأشنّف أذنيها بخُلدٍ من سحر الشوق والودق والهيام باللقاء.

كنت قد تركت زوجتي تعمل في وظيفتها كشعلة لا تنطفئ، منشغلة بفترة الإعداد والتكوين الفكري للتلاميذ، فترة حرجة من التوافق والترتيب، لا بد لها من أن تتمم مشوار ألقها التعليمي، حيث لا ينبغي أن تترك فراغًا في أذهان التلاميذ والإدارة لتكون برفقتي. لأن المبدأ مصون، ولنا غاية تقبع في النفس كغاية يعقوب لا نود أن نشيح عنها. حينها تركتها عصية على الزمن، حتى يعود بنا الزمن إلى أبجدية الحياة.

كانت تلك الفاتنة ترتدي نظارة شمسية صفراء اللون، وما إن رفعتها عن عينيها العسليتين، حتى فاضت بواحة سحرها على محيط الوجنتين، رفلت فضاء وجهها بفتنة غاية في الألق والجمال، كإسهاب فتنة عيني حبيبتي حين توضئ وجهها بفيض السحر وأنا في كنفها.

عيناها المشعتان بالفتنة، طفقتا تلمعان في وجهها بسحرٍ غريب، أضاءتا مساحة الحسن من الوجه. تلك العينان بانتا كقمرين انبثقتا من خلف سحب جفنيها، سهدتا معالم الوجه المشرق بفتنتيهما، ذلك الذي أشبهه بقرص خبز صباحي محمّر، لجاذبية البشرة والملامح المغنجة به.

بالتفاتها يمينًا وشمالًا، هجست بها تبحث عمّن يعينها، عن وجه تألفه يزيح عن ذاتها شبح الوحدة، ربما تبحث عن حرية مطلقة لملاحقة ما تجرأت به في مشاغبتي. هكذا خُيّل إليّ المشهد، وهو ما جعلني أتبع سر نجواها.

باهتمامها بنفسها، أبدعت في تسليس مكياجها، أراقت الشفاه بمسحة شفيفة من حمرة وردية لاذعة، ضاهت بها رقة الأنف المغنّج بالشموخ والألق، ليسطع كمرفأ شاخص على مساحة الوجنتين ببهاء الشفق.

بحذاء كعبها العالي، ارتقت بطولها مقاس طولي في القياس، كما كانت تحمل في يدها حقيبة جلدية نسائية سوداء اللون، وضعت فيها مرآة صغيرة، وأقلام مكياجها، وهاتفها، وحافظة نقودها، وجواز سفرها، ذلك ما تبين لي فيما بعد من خلال استعمالها ومراقبتي لها عن كثب.

شعرت بأحداقي لا تشذ عن فتنتها قيد شعرة، حتى أني توجست خيفة من ملامة المحيطين بها، أو من مراقبة أمن المطار لي، خاصة أن الأسقف مزروعة بشبكة عنكبوتية من كاميرات المراقبة التي تحرس المطار من العابثين

والمتطفلين، تتوجس كل كبيرة وصغيرة لا توائم الطبيعة المرادة. وأني بذلك كنت قد تجاوزت الحالة المألوفة، كأني أرسلت لها رسالة تحرش واضحة، وعلى ما أظن قد تلقتها وفهمتها، وإن كانت لا تظهر مبالاتها علنًا.

كانت ترتدي بنطلون جينز أزرق من النوع المطاط، كما كانت ترتدي بلوزة جرسية فضفاضة سوداء اللون، تحلق رقبتها قلادة ذهبية، تُعشّق أذنيها بأقراط دائرية ذهبية. وكان شعرها الفاحم مسرّحًا فوق كتفيها بتدرج سلس كشلال يرتقي طيات الجسد، أشبه بشعور فرس جامحة.

مع أني لاحظت فتاة أخرى كانت تجلس على بعد خمسة أمتار تقريبًا إلى جانبها الأيسر، تكمن في ساقيها المعرتين فتنة سليطة تشذب النظر، إلا أنني لم أنجذب إليها لعري ساقيها، لانشداه بالي بتلك القطة الشرسة، لتقارب ملامحها من ملامح زوجتي من جهة، ولكراهيتي صفة العري عند النساء من جهة أخرى.

لفتت الأنظار بثيابها اللافتة: تنورة قصيرة بلون عنابي بحواف متهتكة، وقميص أبيض مفتوح الياقة، يكشف جزءًا من بشرتها السمراء التي تحمل جاذبية لا يمكن إنكارها. جلست وكأنها لا تعبأ بمن حولها، تعرض فتنة ساقيها دون اكتراث، مركبة الساق فوق الساق، تستدرج النظرات من كل زاوية.

لـم أكـن منجـذبًا لهـذا النـوع مـن النسـاء، بـل كنـت أسـتنكر هـذا التبـاهي بالجسـد، ومـع ذلـك، وجـدتني أتأمـل تفاصـيلها، مـدفوعًا بفضـول لا يخلـو مـن التنـاقض. أردت أن أرى وجههـا، لأقـارن بـين فتنـة الجسـد وملامـح الوجـه، لكـن شـعرها الكثيـف المجعـد، المصـبوغ بالأوكسـجين والمكـور ككـرة السـلة، كـان يغطـي معظـم ملامحها، يمنعني من التحري بمفاتنها.

انحرفـت بنظـري قلـيلاً، أراقبهـا بنصـف عـين، وبالنصـف الآخـر أتـابع القطـة الشـيرازية الجالسـة قبـالتي، تلـك التـي شـغلت بـالي بجمالهـا الهـادئ وأناقتهـا التـي ذكّرتنـي بزوجتـي. لـم يكـن الأمـر اشتياقًا، بل فضولًا دفعني للمقارنة.

وفجـأة، التفتـت الفتـاة نحـو القطـة، وكأنهـا هـي الأخـرى تبحـث عـن انعكـاس لفتنتهـا فـي هـذا المكـان. لكـن حـين رأيـت وجههـا، خـف وهـج الجسـد، وظهـر التنـافر بـين الملامـح والجاذبيـة الجسـدية. كـان وجههـا غيـر متناسـق، أنـف بـارز، فـم مشـروط، وعينـان صـغيرتان زائغتـان. بـدا لـي أن الجسـد لا ينسـجم مـع الـرأس، وكأنهما من عالمين مختلفين.

تسـاءلت: لمـاذا تحـاول امـرأة بهـذا القـبح الظـاهري أن تفـتن الآخـرين بجسـدها؟ هـل تظـن أن الرجـل يبحـث فقـط عـن الجسـد؟ فـي رأيـي، الرجـل يبحـث عـن الحيـاء قبـل الجمـال، وعـن القيمـة قبل الفتنة.

غضضـت الطـرف عنهـا، وعـدت أتأمـل القطـة التـي بـدت لـي نسـخة مستنسـخة مـن زوجتـي، فـي العينـين، فـي القـوام، فـي

الرشاقة. شعرت براحة نفسية، وكأنني لم أبتعد عن زوجتي قط.

لم يطل انتظارنا في صالة المطار، إذ نقلتنا الحافلة إلى سلم الطائرة. وما إن جلست في مقعدي، حتى رأيتها تتجه نحوي مباشرة، تطلب مني أن أفسح لها المجال لتجلس بجانبي، في المقعد 24 المخصص لها قرب النافذة.

قالت بلهجة عربية مكسّرة:

– صباح الخير.

أدركت أنها ليست عربية الأصل، فرددت:

– صباح النور والسرور... ما شاء الله، تتكلمين العربية؟

– عشت في أبوظبي فترة، وتعلمت القليل. أنا من أصل تركي.

– يا أهلاً وسهلاً، تشرفنا بك. وهل ستعودين إلى أبوظبي؟

– لا، انتهت مهمتي هناك. كنت سكرتيرة في ملحق السفارة التركية، وسأعود إلى أنقرة لأباشر عملي.

في الأجواء، على ارتفاع ثلاثين ألف قدم، بدأت الألفة تنسج خيوطها بيننا. صرنا نتهامس دون كلمات، تتلاقى نظراتنا، وتتشابك خواطرنا. شعرت بأنفاسها تلوّن أنفاسي، وأن بيننا شيئًا يتشكل دون قصد.

تصفحت مجلة "زهرة الخليج" الموضوعة أمامي، وقرأت لها مقالًا عن الفوضى في سوريا والعراق، وعن تدخلات تركيا في الشمال السوري. دار بيننا نقاش سياسي، رغم صعوبة تعبيرها، لكنها أوضحت رفضها لسياسة بلادها الخارجية، التي تراها سببًا في زعزعة أمن المنطقة. كان الحوار عميقًا، وذو أثر في إذابة الجليد بيننا. شعرت بأنها تقترب من هواجسي، وتنسجم مع أفكاري، وكأنها وجدت فيّ ما كانت تبحث عنه.

بعد ساعة من التحليق، قُدمت لنا وجبة الطعام. كان الجو هادئًا، والراكب إلى يميني غارقًا في نومه، فشعرت بحرية أكبر في الحديث معها. كانت لحظة دافئة، امتزج فيها صمت الطائرة بألفة الأرواح، وبدأت الرحلة تأخذ منحى لا يشبه بدايتها.

مددت يدي، تلامست يدها، فشعرت بحرارة خفية تسري في عروقي، كأنها نبضة توقٍ قديم. لم تسحب يدها، بل تركتها تنغمس في سحر اللحظة، وكأنها تشاركني ذات الرغبة، ذات الفضول، ذات اللهفة.

قالت لي بصوت خافت:

- أنا سهير..... فأجبتها:
- اسمك يشبه الليل، فيه من السَحر والسُهد والخيال ما يغرق السامع في شجون الوحدة.

آه كم ترتقي شاعريتك الفياضة لإحساسي، شكرا لك لأنك جعلتني أتغنى باسمي.... وأنت بم تدعى؟

- أنا أسمي عامر، عامر الطائي...

وأنت يا طائي؛ بوسامتك وجرأتك شعشعت فكري، شكرا لإعجابك بي، ولا أخفيك سرا، أنا مطلقة، تزوجت قبل ستة سنوات، ولم يدم زواجنا سوى سنة فقط، ثم عصفت تيارات الأضداد بخيمتنا، فثارت المشاكل بيننا ثم أزفت بنا إلى وحل العقد، مما اضطررنا إلى الرضوخ لقرار الانفصال... والحمد لله لم يكن بيننا ما يمنع الانفصال، ربما كان عاقرا بذاته، أو أنا عاقرة، حيث لم نجرِ اختبارات بهذا الشأن....

سألتها:...

- هل كان زوجك إنسانًا؟.... ضحكت، ثم تساءلت بدهشة:
- ماذا تقصد؟..... قلت:
- هل فهمك؟ هل قرأك؟ هل أدرك لغزك كامرأة؟
- اشكرك كان لا يهتم.

تحدثنا طويلًا، وشيئًا فشيئًا، تلاشت الحواجز، وبدأت تتكئ على كتفي، تهمس، تضحك، تبوح. شعرت وكأنني أرتع في دفء أنثى افتقدتها، كأنني أستعيد شيئًا من زوجتي التي هجرتني، أو هجرتها.

قبلتهـا، فمالـت نحـوي، أحـاطتني بـذراعيها، كأنهـا تغـرف مـن فـيض مشـاعري، وأنـا أغـرف مـن أنوثتهـا. كانـت لحظـة انـدماج، لا تشـبه واقـع الـذين مـن حـولي، ولا تنتمـي للـزمن. شـعرت وكـأنني أقبـل زوجتـي، لا امـرأة غريبـة. تـداخلت الصـور، تاهـت الحدود، وغرقت في بحر من التناقضات.

لكن حين همدت اللحظة، وسكنت الأنفاس، سحبت يدها، وعادت إلى جلستها. ابتسمت وقالت:

- شكراً على قبلتك، كنت رجلاً حقيقياً.

ثم همست لها:

- يجب أن نلتقي في إسطنبول، لعلنا نخطط لمستقبلنا.
- أجابت: وأنتِ ستكونين ضيفي الليلة.

عنـدها صـارت الطـائرة تـدور حـول مطـار اتـاتورك، ثـم هبطـت الطـائرة، وخرجنـا معًـا. صـفت فـي طـابور المواطنـون وصـفيت فـي طـابور الأجانـب - توقعـت أن تنتظرنـي بعـد خـتم الجـوازات، لكنها اختفت. وفجأة، رن هاتفي، وإذا بصوتها يقول:

- يـا وائـل، لا تـنسَ أن تأخـذ حافظـة نقـودك مـن الاستعلامات... ومع السلامة.

تحسسـت جيبـي، فلـم أجـد الحافظـة. كانـت قـد سـلتها منـي فـي لحظـة غفلـة، لحظـة شـوق، لحظـة عبـث. لـم تأخـذ سـوى المـال،

وتركت لي بطاقة هويتي، وصورة زوجتي، وكأنها أرادت أن تذكرني بمن أنا، وبمن كنت.

حاولت الاتصال بها، لكن الرقم اختفى، كأنه لم يكن. أدركت حينها أنني لم أكن الصياد، بل الفريسة. وأن سهير لم تكن امرأة عابرة، بل درسًا قاسيًا في فن الخداع، وفي هشاشة الرغبة حين تسبق العقل.

ضحكت على نفسي، على نزوة دفعت ثمنها ألفًا وخمسمائة دولار، وعلى قبلة كلفتني أكثر مما توقعت. وعدت إلى ذاتي، إلى وفاء زوجتي، إلى نضوجي الذي تأخر كثيرًا.

4- القوقعة

وأنا خارج من المطار باتجاه مرأب العجلات، صادف أن تتواجد قربي تلك الفتاة المعرة، هجست بها في حيرة من أمرها، لذا سألتني أن كانت لي دراية بإسطنبول لاصطحابها معي، فقلت لها:....

- تفضلي أية خدمة؟
- ممكن أن أصحبك لمركز المدينة؟ فأنا لم أزر اسطنبول من قبل.
- لا ضير في ذلك على الرحب والسعة...

حيث وجدت فيها فرصة إذابة شحوم شجن تركته سهير في داخلي ووصفة روتين أعالج بها جواء الوحدة، متأملا نسيان احتيال سهير وما تركت في نفسي من غثاثة رعناء جراء فعلة السرقة، راجيا تسلية ذاتي مع هذه المعرة قبل توجهي إلى مأربي في رحلتي القامة المجهولة. كانت قد جذبتني بثأدة أفخاذها ولون سمرة بشرتها، كأنَّ سهير هي من فرضتها على ذاتي لأنسى مصابها.

بصراحة بعد أن طلبت مني ذلك هجست بطلبها شيء من الرجاء تود به بلسمة جراح سهير دون أن تقصد، لذا رغبتْ تنتشلني من مأزق سهير وما تركت من ألم شاط في صدري، وعسى أن تشطب فعلة سهير وغلطتها وشكلها من الذاكرة، وعسى أن اتخطى حاجز سهير المعيق.

بدخولي صفحتها كأني شطبت صفحة سهير وشخابيطها من سجلي الرسمي لأبدأ صفحة جديدة مع ذاتي الخفاقة. لحظات عصيبة جرت بسرعة دون تركيز، بلورتها الفرصة لانتشال إرادتي واستعادتها قدرتها البربرية مع النساء دون أن استطيع استعادة قدرتي على إيفاء ذاتي هدوئها وقيمها وحفظ العهد الذي قطعته مع زوجتي.

جرت الأمور بعبثية، هجست بلحظات مرة وهي تخال ذهني بعد أن تركتني تلك المماردة اتقلب كأفعى بمواجع فعلها، بذهابها كانت قد تركت مرارة على الشفة واللسان بأثر قُبلتها السامة، جعلتني أركن ذاتي في زاوية الوحدة، خارج أدراج النساء قاطبة. كأني باصطحاب تلك المعرة وددت أن أكسر حاجز العزلة، أن استخلص أنزيم الثقة لأعيد الذات لمكانتها الطبيعية التي افتقدتها..

حيث عقدة سهير لغلها أضحت كوشم ثابت في فكري، لن يزاح عن بالي قط. سهير التي شغلت فكري وقوضت رغبتي كانت قد سلبت فكري ومشاعري وقوتي ومالي في ديار الغربة على حين غفلة، وهي من وضبت ذاتها كعصا العقاب تربك ذاتي.

مسكت يدها ودلفنا إلى المرأب لنستأجر عجلة تكسي لمركز المدينة، وبالذات إلى فندق ميرديا في وسط إسطنبول... حيث ما أن لمست كفها؛ حتى هجست بخشونة تحفر راحة يدها، كأني لمستُ يد فلاح أشقاه الكرب، لكنها لم تحرف فكري عن

الغايـة التـي اتقدت فـي ذهنـي وبالـذات فـي النيـة التـي تكـورت فـي ذهني واللهبة التي تتقد في ثأدة ساقيها من لون ونعومة والق.

خلال الطريق قالت:....

- أني كنت جالسة خلفك بمقعدين في الطائرة.
- لم انتبه على وجودك..... هكذا اجبتها.
- لأنـك كنـت منشـغلا بتلـك الفتـاة الجميلـة التـي كانـت تجلـس إلى جانبك.
- ربما.
- لمَ لمْ تنتظرك؟..
- لـم يكـن بيننـا موعـد مسـبق، ثـم زوجهـا كـان ينتظرهـا فـي المطار.

هـزت برأسـها بـين مقتنعـة وبـين شـاكة، ولكنهـا بقـت بكياسـتها تنتظر المصير القادم دون أن تبدي أية مبادرة من قبلها.

إذا كانـت تجلـس خلفـي وشـاهدت تفاصـيل مـا جـرى مـن ود وتهـامس بينـي وبـين تلـك السـاحرة (سـهير)، تلـك التـي تأملتهـا وقارنتهـا وشـبهتها بزوجتـي وحبيبتـي صـدف. أي أنهـا راغبـة فـي تكملـة المشـهد الـذي تخلـت عـن تكملـة أدواره سـهير علـى حـين غفلـة. إذا لابـأس فـي ذلـك، رغبتهـا تطـابق رغبتـي وأن كانـت الـذاكرة لازالـت خـائرة فـي مرافـق مفـاتن سـهير المرهقـة. ربمـا اصـابتها الغيـرة، فأتحفـت ذاتهـا لتكمـل لعبتهـا، أو أصـابها مـا أصاب سهير من لدانة وميوعة لتجربة ذكوريتي.!

هـي لا تختلـف عنهـا مـن ناحيـة الجسـد، لكـن ملامحهـا لا تـوائم لطافـة جسـدها، حتـى صـوتها تهجس بـه يغـق بنغمـة الـدو الخشـنة، فدرجـة صـوتها أقـرب إلـى درجـة الاوكتـاف الذكريـة مـن نغمـة السـوبرانو الأنثويـة المتبعـة فـي السـلم الموسـيقي. فيمـا طولهـا وبـروز صـدرها وتكـور عجيزهـا وطـراوة السـاقين المغنجـة تفـيض بحيويـة أنثـى مـع خشـونة لاصـقة فـي القـوام كطـابع بريـدي. أنهـا حقـا مـن هـذه الناحيـة مثيـرة، تلفـت الانتبـاه. حينهـا ومن باب المجاملة سألتها:....

- لم أتعرف على اسمك ومن أي بلد؟
- أنـا مـريم، أمازيغيـة مـن المغـرب، لـي فتـرة شـهرين أعيش في ابوظبي... وأنت، ماذا عنك؟
- أنا سعيد، تاجر من اليمن.
- سعيدة بمعرفتك يا سعيد، أهجس باسمك يطابق طبعك.
- وأنا أسعد بك يا مريم....

عجيـب أمـرك!!!، أنـت سـعيد أم عـامر أم وائـل؟؟؟؟؟؟؟ تتقلـب شخصيتك حسب المواقف.

لالالا ..... قد تكون أمجد أو حامد ومناف.....

هكـذا صـرت احاسـب ذاتـي، عجبـت بهـذه الصـفة التـي اكتشـفتها فيَّ لأول مرة..هههههه.

وأنـا أسير معهـا كنـت حـذرا جدا مـن أن أقـع فريسـة مـآرب سـهير ومطبهـا فـي نفـس الوقـت، كنـت حريصـا بـأن أسـحب حقيبتـي

وأحمل شنطتي الدبلوماسية بيدي، فهي خفيفة لم أحمل فيها سوى بعض اوراقي الخاصة وروايتين عالميتين، أحداها اللص والكلاب لنجيب محفوظ والثانية أحدب نوتردام لفكتور هيجو اسلي نفسي بهما واشيائي أخرى الثمينة وقليلا من النقود.

حرصت عن مكمن المال والمحفظة التي فيها أسراري، بحيث وضعتها في حقيبتي الدبلوماسية وأقفلت عليها برقمها السري. فمن يدري ما ورائها، ربما جندتها سهير، قد تكون ظللتني باسمها وجنسيتها، هذه الايام الموضة جارية على هذا النسق مثلما ضللتها بنفسي أنا.

لقد شاقني حدسي بأن مريم ليست مريم، ربما خالد أو جبار للخشونة الذائبة في جسدها وجرير ملامحها، أحيانا لا تستطيع أن تجزم من أن الشخص المقابل ذكر كان أم أنثى؟ فالمثلية أرتفع منسوبها في الوسط مع غياب المنهج الديني، وهناك من يروج لها في نشر الفساد لغاية في نفس يعقوب.

وما أن توقفت العجلة قرب الفندق، حتى نزلنا من العجلة، حرصت أن أسحب حقائبي جانبا، الفندق يقع على جانب من الشارع تجاوره عدة فنادق في وسط مُجَمعْ عام شعبي... في تلك اللحظة رنَّ هاتفي وأذ بها سهير تهامسني على الخط..

- الو
- الو.. أين أنت يا فاتنة؟ لم تركتينِ وحيدا؟...

- كف عن مغامراتك يا وائل، لا تجازف بذاتك، شاهدتك ترتقي عجلة التكسي برفقة تلك المعرة، مع السلامة.
- الو ....

أغلقت الخط وتركتني في حيرة من أمري مرة أخرى، وكأنها شعرت بالغيرة منها، أو ربما ضميرها أنبها بسرقة نقودي فودت تنبيهي من الآفة مريم..... ياه,,, كانت تراقبني من زاوية ما، ربما تراقب أفعالي بطريقة ما، وتترقب ردة فعلي وإخلاصي....بتُ لا أفهم المشهد، كل شيء تكركب في مخي. لقد بحثت عليها في زوايا المطار كثيرا، لكن المطار كبير جدا، ثم الزحمة أغشت ناظري، أين كانت تختفي في أدراج ورفوف المطار الواسعة، ربما لحقتني بعجلة ما، كل شيء جائز...

إذا لم تصبر على فراقي، ربما أثرت بها، ربما اسفت وحزنت على سلوكها معي، ربما ودتْ تختبر صبري، ربما تحرك ضميرها فودت أن تجنبني الاضرار التي قصمت ظهري...

حينها التفت إلى تك المعرة وقلت لها:...

- انا ذاهب لفندقي وأنت ممكن أن تسكني في هذا الفندق أو ذاك القريب أمامك، مع السلامة.
- مع السلامة

تركت المعرة في ذهول من سلوكي وتصرفي معها، هجست بسهير لم تكن سهير أنما روح زوجتي وطيفها هي التي كانت

تراقبني، هي التي أتصلت بي، أهجس بها قريبة مني، وكأنها تشاهدني بمنظار عاطفتها..

بمكالمتها الثانية كأنها أهطلتني بعصا تأنيب الضمير على رأسي، هزت عرشي، اسقطت الثمار الفاسدة من غصن تفكيري.

كما أني من جانب آخر؛ هجست بالمعرة ليست سوية، رانت لي بأنه ذكر، خنثي، ملامحها التي لا تمت للأنثى بصلة قط.

ذهبت إلى الفندق الواقع في الجهة الثانية من الشارع الكائن في زاوية شبه خفية عن الانظار في منطقة سلطان أحمد، وأنا أجر خيبة ضعفي وعناء سلوكي. حاولت من جانبي مرارا الاتصال بسهير دون جدوى، بقيت على حد القلق اترقب اتصالا جديدا منها أو زيارة خاطفة تطيب نفسي دون أن تحدث، متأملا أن ترق وتضعف وتعيد لي ما سرقت من جيبي في لحظة صفاء.

5- منغصات الفندق

على الرغم من أن الفتاة التي ادّعت أن اسمها سهير قد أخذت قدرها وفتنتها وما في جيبي لحظة نزولنا من الطائرة، إلا أنها تركت في ذاكرتي وشمًا لا يُمحى، وفي شفتيَّ لسعة قبلة ما زالت تتوهج، وفي ضميري عصا تأنيب توهطت بي كلما انحرف سلوكي عن جادة الطريق. رسخت كذكرى لطيفة، تراقب هوسي، تتحكم بقيمي، وتُحاسبني على نزواتي كلما مالت استقامتي.

أهم ما تركته في ذاتي هو تلك العصا، عصا الضمير، وحرارة القبلة السليطة التي التصقت بشفاهي كغراء، تبطش بي حينًا، وتردعني عن مجاراة الموبقات حينًا آخر. كانت تذكرني، في لحظات النسيان، بحدود الأدب واللياقة، وبحواجز العلاقة الزوجية التي لا ينبغي تجاوزها.

بصريح العبارة، جعلتني أرعوي عن سلوكيات الطيش والعبث التي أجد فيها أحيانًا ضالتي، لا عن رغبة، بل عن وحدة، عن فقدان السيطرة على انفعالاتي النفسية، عن تكرار المواقف المغرية التي تقتحم حياتي دون أن أسعى إليها. ربما هناك خلل في ميزان الفكر، أو عطب في وجه العاطفة، أو لغز غائر في تكويني الشخصي يتحكم بي دون إرادة مني. شيء سحري، مضنٍ، مركب من غموض لا أفهمه، ولا أملك له تفسيرًا.

دخلت إسطنبول مثقلًا بهذا الإرث النفسي، واستأجرت غرفة في فندق مريديا بمنطقة السلطان أحمد، القريبة من البحر، ومن مسجد السلطان أحمد ومتحف آيا صوفيا. منطقة شعبية، مزدحمة بالأسواق، يجاورها سوق كراند بازار وحديقة جولهانة المطلة على خليج البوسفور.

تحممت، كشطت عن جسدي عناء السفر، ارتديت بجامتي، وتمددت على الفراش الوثيرة، فغفوت ساعة. ثم خرجت أستطلع الأسواق، وجلست في مقهى يطل على البحر، أراقب الموج، وأتأمل الغياب. بقيت حتى العشاء، أبحث في الوجوه عن تلك القطة الرقطاء المسماة سهير، وعدت مرهقًا، ونمت حتى العاشرة صباحًا.

حين ودعت زوجتي، تركت في ذهني عهدة الضمير، عصا تلسعني كلما زاغت عيني، خاصة حين أكون وحيدًا، منفردًا، تهاب أن تنزلق قدمي بعيدًا عن حواجز العلاقة الزوجية. تلك العصا جعلتني أتراجع عن سلوكيات العبث التي أتعشقها أحيانًا بمحض الصدفة، دون إرادة، نتيجة فقدان السيطرة على انفعالاتي، كما حدث مع سهير.

في الفندق، كانت عاملة النظافة تأتي كل صباح بعد العاشرة، تؤدي عملها الروتيني: تبديل الشراشف، تنظيف الغرفة، ملء قوارير الماء. في اليوم الأول، عطفت عليها بخمسة دولارات، فصارت تعتني بالغرفة أكثر من المعتاد. في البداية، لم تلفت نظري، كانت ترتدي زيًا رماديًا باهتًا، أشبه بلباس الرجال.

لكن في اليوم التالي، دخلت بثوب مختلف: تنورة سوداء قصيرة، خطواتها أكثر تأنقًا، نظراتها أكثر جرأة. رغم تجاوزها الأربعين، كانت تحتفظ بحيويتها، بهالة شبابها، بجاذبية لا تخفى. حين انحنت أمامي بحجة التنظيف، صرت ألاحظ تفاصيل جسدها، ساقيها، رشاقتها، انحناءها، كل ذلك صار يوقظ في داخلي رغبة نائمة.

أخذني الخيال بعيدًا، نسيت عصا الضمير، نسيت سهير، نسيت زوجتي. خلتها زوجتي، لتشابه السيقان، لتشابه النظرات. اندمجت في المشهد كأنني ممثل بارع، أبحث عن لغز الفتنة، عن اللؤلؤ والياقوت تحت التنورة. أسبح في موجة عمياء، دون خجل، دون إدراك.

امتزج الخيال بالواقع، أصبحت في وضع قلق، لا أحسد عليه. لم أعد أقاوم عناكب الشهوة، توسعت دائرة الوله، جردتني من إرادتي، بتُّ عاجزًا عن الصبر. بسلوكها الوقح، حركت رعشة الولدنة في داخلي، دفعتني إلى المشاكسة، إلى العبث، إلى الانحدار.

وفي لحظة نسيان، امتدت يدي لتلامس طراوة أستها، فالتفتت نحوي بابتسامة صفراء، لا تخلو من خجل، ولا من رضا. عندها شعرت بعصا الضمير تلسعني، أعادتني إلى عالمي، إلى واقعي، إلى ذاتي. تساءلت: أين ذهبت؟ أين انحدرت؟ كانت لحظة غثيان، لحظة استهجان، لكنها كانت كافية لتجعلني أستفيق.

ربما شعرت هي بغبطة، ربما أدركت أنها ما زالت تملك فتنة الشباب، ربما كانت لطيفة معي بسبب البقشيش، أو ربما شغفها بي دفعها لارتداء تلك التنورة. ربما... وربما... وربما...

كل تلك الاحتمالات واردة، لكن الحقيقة أنها شغلتني، بلطافة سيقانها، حتى نسيت أنها عاملة، ونسيت ذاتي. كانت لحظة صبابة في غير محلها، حالة لا أجد لها تفسيرًا، ربما مرضية، ربما شيزوفرينية، تمزج الخيال بالحقيقة، تنقلني من حالة الوجود إلى حالة التيه.

ربما الوحدة دفعتني، ربما الغربة، ربما زحمة الأفكار، ربما ضعف الإيمان. كل ذلك اجتمع على ذهني كهوام الحشرات، أنساني حقيقة ذاتي، وقدري، ومكانتي.

إذا جنح الفكر، لينحرف إلى واطئة السفاح، إلى لحظة التسامي والانصهار بتلك الفتنة المكورة في كفلها، كأنَّ الأمر قد فرض عليَّ، بحيث صار خارج مساحة العقل والتفكير والإرادة، حالة تقيدت بها بقيد الغريزة.

كأنّ الذي دفعني إلى تلك الحالة من اللمم، هو ذلك الفراغ الذي اجتاح عالمي، ووسم فكري بالوحدة والجنون. صار يرفع من غيي، ويعكر صفو ذهني بمعطيات السفه التي تحيط بي. منذ لحظة فراق زوجتي، وأنا مشغول البال، يتوه فكري في تفاهات المحيط، حتى غدت حالتي أشبه بحقنة تخدير، تغزو

الـذات بـإبر كـل أنثـى جميلـة تصـادفني، حتـى بـت لا أميـز بـين الطيب والطَيب في جمال عالم الأنوثة.

أقنـع نفسـي بتلـك المبـررات، لكـن الحقيقـة أننـي لـم أسـتطع مقاومـة المغريـات مـن حـولي. وجـدتني فـي حالـة مـن الـوجس، أهجـس بـذاتٍ ضـعيفة، مراهقـة، مغـرورة، مريضـة، عبثيـة. ربمـا أنـا فعـلاً مـريض، ولا أشـعر بـذلك. بـت أشـك فـي طبيعـة سـلوكي الهمجـي، وصـار التنـافس علـى أشـده بـين الأنـا العاقلـة والـذات المراهقة في تقييم سلوكي.

لحظـة نسـيان واحـدة نقلتنـي مـن سـكونٍ تـام إلـى عـالم الرجـاء والألفـة، عـالم افتقـدت فيـه رفيـف صـبري، وبقيـت مهووسًـا بتلـك المفـاتن وأنـا أستشـعر ذاتـي لائـذة بحضـن زوجتـي. بطبيعـة الحـال، أنـا أعشـقها، أعشـق كـل خليـة فـي جسـدها، ضـحكتها، همسـتها، رقتهـا، لـون بشـرتها، وتفاصـيل جسـدها المسـوّرة بالفتنـة. لـذا، انغمسـت فـي جسـد تلـك العاملـة متخـيلًا أنهـا زوجتـي. هكـذا خُيّـل إلـيّ المشـهد، وهكـذا رأيتهـا. كمـا غـررت بسـهير مـن قبل، غررت بجسد العاملة. لكن حين التفتت إليّ، قالت:

– يـا سـيدي، إن كنـت ترغـب بـذلك، عليـك أن تـدفع لـي خمسـين دولارًا، حينها سأكون تحت إرادتك.

فـي تلـك اللحظـة، شـعرت بعصـا الضـمير تهـوي علـى جسـدي، وتركـت أثـر سـخطها علـى القلـب والـذهن. كشـطت الشـهوة، وغـار القضـيب فـي مخبئـه. نظـرت إلـى وجههـا بشـيء مـن الخجـل وتأنيـب الضـمير، كـأنني أصـبت بفـزعٍ وخـوف. سـلمت

أمري للأنا العاقلة، لأعالج تقرحات السخف التي طفحت في فكري، والتي تركت ملامح وجهي تتأسف لها عن كل بائنة أفرزها سلوكي.

قلت لها، ووجهي يكسوه خجل واضح وابتسامة صفراء:

– آسف يا سيدتي، نسيت نفسي. هذه الأعمال لا تليق بي، وليست من شيمي. تخيّلتك زوجتي في لحظة ضعف. شكرًا لك.

استخرجت من محفظتي عشرة دولارات، وضعتها في يدها وأنا أعتذر. نظرت إليّ بحسرة، وكأنها تأسفت لرفض عرضها، بعد أن شهدت يدي على رغبتي الجامحة بها.

بعد خروجها بقليل، ارتفعت مآذن المساجد تكبر في نداءاتها، تدعو المؤمنين إلى الصلاة. لحظة إيمانية جالت في الفضاء، وكرت على وتين القلب، لتغسل النفس من آثام الشيطان، وتحثني على معاملة الناس بالتي هي أحسن. كانت لحظة ورع، جعلتني أكف عن غيي، وحفزتني إلى الولوج في أجواء التوبة، وتأمل رحمته وجنته تعالى، لأهيئ ذاتي للصلاة.

اتجهت إلى المسجد، وأنا أشعر بانكسارٍ وضعفٍ أمام الله، كمن لزم الصمت لمشواره القادم. طرقت مسامعي أصوات أذان الظهر المنبثقة من مآذن إسطنبول العديدة، تلك الغائرة في بطون المدينة، تحث المسلمين على التوجه لغرف الإيمان

والهداية، لغسل النفوس من المآثم، والتروي في أمور الدنيا، والأمر بالمعروف والنهي عن المنكر.

خرجت العاملة من الغرفة، وخرج خلفها الشيطان يتقهقر، هاربًا، مع ارتفاع صوت الأذان. اتجهت إلى مسجد السلطان أحمد، ذلك المسجد الواسع، مزار الشرف لدى المسلمين. صليت فيه صلاة الظهر مع الجماعة، وأحسست بقيمة نفسي وهي بين يدي الرحمن.

لا أدري بماذا أسمي ذلك. شعرت بذاتي غارقة في متاهة من العقد، انفلاقيات كونية تحدث في أعماقي، تسوقني إلى الشذوذ الفكري. صرت أقرأ فصول شخصيتي العبثية في عيون الآخرين بوضوح. لا أجد وصفًا دقيقًا لها، لذا بتّ أجرد تلك الحالة عن أصلٍ يركبني. صارت الذات الداخلية تماحك ذاتي الخارجية بالهفوات التي تتبعها. حمدت الله أنني لم أكن في موضع يشهرني، وإلا لكانت الفضائح تهز كياني أمام الأهل والمعارف والأصدقاء.

بعد الصلاة، تجولت في أروقة المسجد التاريخي، الذي بناه السلطان العثماني أحمد الأول بين عامي 1609 و1616، ثم اتجهت إلى متحف آيا صوفيا المجاور، الذي يحتوي على مقتنيات الإسلام وما يخص الرسول وآل بيته وصحابته، سلام الله عليهم أجمعين. تذكرت المآثر الكبيرة التي تركها الإسلام في الواقع العالمي وفي النفس العفيفة، وحمدت الله على نعمة الإسلام، وعلى التضحيات التي قدمها أجدادنا من أجل رفعة الدين والقيم التي نتصف به.

6- الصورة

كنتُ قد عدتُ لغرفتي في ساعة متأخرة من الليل، نتيجة الأرق الذي أصابني، جلست على سريري أتأمل الحيطان واللوحة الزيتية المعلقة على الجدار المقابل لسريري وهي تخترق شرودي، تخزق أذنيَّ ترنيمة الساعة الجدارية التي لا تكف عن إزعاجي بصوتها الرتيب المتوالي تك – تك - تك، وكأنها تذكرني بالوحدة والحساب وعد الأيام وحساب العمر الذي يجري لمطافه الأخير...

كانت اللوحة أكثر ما شدهت انتباهي، خطفت اهتمامي بفكرة الرسام المبعثرة، صرت أشغل بالي بها وأحاول تفسير الفكرة ووخز ظنه وما يؤول اليه وماذا يبغي بها وما يود أن يقول، أوحت إليَّ شعورا بليدا بالحزن وأنا أرى فيها وجه فتاة مراهقة أضناها الزمن وأسفتها الطبيعة بؤسا وشقاء، أغشت محياها خطوط هميمه جراء الكرب وعناء الزمن والفقر البائن عليها وعلى لباسها وشقاء عملها، أشقتها باقة الحطب المحمولة على ظهرها المعتد وهي ترتدي لبدة من الصوف تحمي جلدها الرقيق من خدش خشونة عيدان الحطب، والتي من الممكن أن تقرح جلدها الطري تلك النتوءات المدببة.

تبدو بعمرها الفتي جادة بحملها وهي تمشي في ممر ضيق مطرق من قبل السابلة، تربة مليئة بأنواع من أعشاب الشوك والعاقول والصبير والنباتات البرية الصحراوية والورود الجافة الشوكية اليابسة، التي من الممكن أن تقرح وتدمي

قدميها العاريتين بسهولة. مع ذلك تبدو في عنادٍ وإصرار وعزيمة وهيَّ تمضي بمقارعة الطريق والظرف المواربب المحيط بها. تبدو بلياقة وباعتدادٍ واضحٍ لهدفها.

ترتدي تحت اللبدة نفنوف شفاف من قماش الشيفون وردي اللون، مفلجة الصدر، يغطي بطنها وجزء من ساقيها حتى الركب، مما يفضي إلى بروز مفاتن الجسد المغرية والمغنجة بالشبق، كإطلالة جزء من ثرى الثدي المنتبذ تحت حمالة الصدر، وذلك من خلال انحناء قوام ظهرها بزاوية منفرجة، لتوازن ذاتها مع ثقل الحطب المحمل على ظهرها خلال المشي. إضافة لبروز واضح في تكور العجيز المصان بشكل دائري للخلف، وكأن الرسام ركز على مفاتنها ليثير انتباه الناظر بشكل ملفت للنظر، كأنَّ الرسام تقصد في اتقاد شعل المفاتن ليجذب الشاهد للوحاته، بل أنه يبدو مريضا فعلا بمرض سادي بما يخص أنوثة المرأة..

مع إطلالة مفاتن الجسد وتوافق ابتهاج رمان الصدر بالألق؛ بدتْ تجذب النظر من محيطها كوردة زاهية ترفل الطريق بألقها ليبدو المسار أكثر ابتهاجا بها. فيما تبدو ساقيها المغنجتين بالرقة والفتنة كشطبي عود بان، لاستقامتها وطراوة بشرتها تشع منهنَّ حيوية وألق جاذب، وكأنهن مصقولتان بقالب من الشمع، للفيض السائح فوق قوامها. فيما ترتدي في قدميها حذاء أحمر من الجلد يغطي القدم إلى الرسغ، ليقيءها عبث الأشواك وقَرَض الأحجار الصغيرة المشاكسة.

بفتنتها وشكلها تبدو أبنة السادسة عشرة سنة، أي أنها في قمة الألق والرقة والطراوة. بعمرها الفتي وكأنها في عراك وتحدٍ مع الزمن والحجر والشجر والحَرّ والوحشة بتلك الأنوثة الدبقة التي تركبها. أو بأن تلك المباهج المحيطة بها تفتقر إلى الجاذبية دون تأثير وجودها الرائع، إذا ما أخذنا شعرها الاصهب المتطاير مع الريح وهو يتدلى من تحت وشاح شفاف تلف بها رأسها تجنبا لتعشق عيدان الحطب فيه، وللحفاظ عليه من الغبرة المثارة من حولها. يليك وجهها اسيل خد ريان وشفة شبقة يجف عليها رضابها، فيما أنفها يبدو كتمرة ناضجة يشرف على عينين عسليتين تجهد في فتحهما بتصديها سموم الريح وشدة الحر المضاع والعرق المتصبب من على الجبين.

وجدتُ في الصورة تمازج في تركيبة اللون والأبعاد التي رام إليها الرسام، لقد أبهرني بعمق المغزى، وجدتُ أبعاد الفكرة تلتقي مع زوايا الفتنة وتتوافق مع قدر الفتاة وسحرها وفظاظة الطبيعة، تبدو كأنها ترتدي العزم والرجاء بذات الكيفية.

إبداعٌ ملفتٌ للنظر سطرته ريشة الفنان وبالذات في مواضع فتنة الجسد، لقد أضفى مهارة في تجسيد الفكرة، أبدع في بروز الفتاة كعامل جمال رئيسي في فكرة اللوحة التي يبغيها. تمكن الفنان من تعميق ذلك الخط الوهمي البارز في الفكرة بشيء من العبقرية، جسد الفكرة على أنها شخصية هلامية قائمة بذاتها تتجول في منعطفات اللوحة برفقة الفتاة، إلى جانب التحدي الواضح في أصرار الفتاة المراهقة على

المراهنة والتحدي بقدارتها الفتية في طي ظلال الوحشة والوحدة التي تعيشها الفتاة في بوادي الصحراء تحت جلد بأس الظرف.

لوحة تعبيرية جسدت حالة الفتاة وهي تشقى في تجاوز محنة الرزق وجمود الحياة بإصرار، بذا كأنه شكل مقارنة وهمية بين عمرها الفتي وقسوة الظرف إلى جانب إصرار الفتاة في تخطي عجزها المادي. بين في داخلها أمل زاحف يوازي طموحاتها، تراه حلم مغروس في التربة يقاوم الطبيعة كمقاومة الشجر لذاك الظرف. مع تواجد جربوع صغير يزحف بخطاه خلف البنت، كانه يتبع حيويتها التي فرضتها على الطبيعة في تلك البؤرة المنعزلة. كأنه غرَّ بفتنة الحياة وجسد تلك الفاتنة..

كان الرسام قد أصرَّ إلى إبراز مواضع الفتن، ليدهش الناظر بقوة بصيرته، وضع اللغز في صرة الهدف، جعل المشاهد يغور في الفكرة التي تجتمع عليها الأفكار الاخرى، ليرتقي بالمشهد إلى شيء من البلاغة، ود جعل المَشاهد عنصرا من عناصر اللوحة، لتتجاوز الفكرة حدود عناصرها وليستفيد من شكل المغازلة الحية بين جسد الفتاة وطبيعة المَشاهد الأخرى.

كأنَّ الجربوع وجد في الفتاة صفةٌ إضافية تضفي الجاذبية على طبيعة وجوده، لذا تبعها لينقذ ذاته من الوحشة والوحدة المكفهرة المحيطة به. أهجس بحاله لا يختلف عن حالي من ناحية الوحدة والحيرة والتعجب والالهام واللهفة خلف الفتاة،

جعلني اتبع غيه في تتبع فتنة الفتاة بحثا عن لغز الحياة في الطبيعة وفي جسدها المغري.

برع الرسام في أضفاء محيط الفتاة بالعقد، غال في الأدغال والأشواك والأحراش والوديان، أضفى التلول والمنحدرات لتجسيد معنى العناء والوحشة، إلى جانب تأثير عصف الريح على جسدها الملائكي، بحيث أينما تنظر تجد للريشة دور في إبراز حالة تثير فكرة المشهد من خلال العناء والشخصية الوهمية الغائرة في ثنايا الفكرة والألوان المنشة بها، المرفلة في مبدأ الحضور في كل مرفئ من الصورة. أعطى لهيئة المنظر إنماز مبهر فيه ببعد الفكرة والقدرة والتعبير، تمكن من إبراز روح الحركة في واقع الجمود.

لا أهجس بغموض في اللوحة، أينما أنظر أجد فيها شحنة من الطاقة الكهربائية تنير مساحتها، طاقة إيجابية تضيء فكرة ما، أطرها بجاذبية عامة تشد الناظر إليها، سواء كانت في تجسيد الفتنة وعمر الفتاة أو في إبراز جلد الخريف وسرعة الريح السهجة وكثافة الشجر وعناء الجربوع والوديان المتعرجة. من خلال تناسق الألوان جعل المستحيل يذلل المستحيل.

قتامة اللون أضفى طابعا الحزن على ملامح الفتاة، إلى جانب طفح الشفق بين ظلال عينيها، من خلال عزمها وإصرارها على تحدي الظرف. كأنه أخذ الفكرة من لوحة موناليزا المشهورة للفنان ليونارد دافنشي، وهي تشد العزم على خصرها لمقاومة جلد ظرف بليد وفاقة مذلة، لمقارعة

القدر الذي اجبرها على العناء برقة الجسد وخفة الدم والفتنة المراقة.

من جانبي وجدت في تلك السيقان المثيرة للشبق، ثورة فتن تنسحب على الساقين من الكاحل حتى الأرداف، في جاذبية سليطة تحتك بغريزة النفس الامارة بالسوء، تحث الناظر إلى تأمل إشعاع الفتن لما خلف الظاهر من ذلك الجسد، ومع ذلك أظلها الظرف، أعشقها في أتون العمل لتجاوز حالة الفقر المربكة التي أجبرتها على تحمل قسرية الظرف والفاقة.

وجدتُ عناصر القوة مركز في ملامح الوجه وطراوة الثديين وبروز العجيز وطراوة وأناقة الساقين، كأنها تمشي على حد السيف، بين أن تسقط في هوة العذاب أو تفلح في عبور المفازة لتجتاز عجزها وضعفها وفقرها المريب.

الفتاة تبدو عصامية، شديدة المراس، وكأنها أخذت شراستها من جلد الظرف والطبيعية، فهي لا تنظر لحشرجات ضعفها قط؛ أنما إلى رسائل الإرادة وإشارات الروح لتتحكم بالظرف وبأمور حياتها، لذا ربطت أحزمة العزم على بطنها، أودعت في ذهنها فكرة صماء تساند الظفر، كي لا تهتز عتلة توازنها أمام نحولها، كي لا تكسر إرادتها وتتقهقر.

كانَّ الفنان حين أودع الألوان في موضع الجاذبية، أعتمد في سره على عقد الطبيعة وإيجاد حلول لها في آن واحد، بحيث من ينظر للوحة من نظرة تفسير أو تخاطر يجد فيها شعلة نار إلى جانب جمود ثلج غارق في وجه الفتاة.. كأنَّه أراد بالنار

إذابة ثلوج العجز، لتجتاز خط الرجاء الفاصل بين الشك واليقين، بين وجودها وعالم الوجود. اراد بالثلج راحة بال كعصا ترتكز عليها في مشوارها.

تلك اللوحة جعلتني أتمعن بأبعاد الجسد وملامح الوجه التي أغرتني كثيرا بجمالها، وبالذات بالتناسق المموه في ملامح الوجه وفي تكور فتنة الساقين، احسب اللهفة بها كرذاذ المطر تغسل وجه اللوحة بالابتهاج والجاذبية. صرت أهيم بتلك المناظر الخلابة، جذبتني سيقانها، أغرتني أثدائها، هجست بها كحبيبتي وهي تشاكسني بألقها. وأنا غائر في غيي، أصابني لاعج الهوى، تخيلتها مطروحة إلى جانبي في فرشتي وأنا أحضن وسادتي بغنج، مع إغماض عيني تخيلتها زوجتي، بت اشد عليها بشبق وأنا متدثرا ببطانيتي، لما لها من طلة تركت أثرا جميلا في النفس.

انحدرت في غيي وإسهابي كثيرا حين خاتلت ظني، فأغدقت بتخيلي وخيالي في مفاتنها؛ حتى تهت في توهمي بأنها عارية الجسد مطروحة إلى جانبي، خلتها عاملة النظافة التي كنت قد صرفتها في فترة الظهيرة، وكأني قد ندمت على فعلتي بإبعادها دون أن أجامعها. صرت أرهز بالوسادة بعنف، متلذذا بتلك المفاتن وأنا غارق بإستمناءة واستمالة لا أدري كم طال وطاف بي الوقت، غارق في بحرها الطامي. لقد راغت وزاغت في خيالي، فلم أشعر بتلك التفاهة والبلادة التي لازمتني إلا بعد أن تبلل رأسي بالعرق وغص لباسي بلزوجة ماء الحياة، حينها صحوت وعدت لرشدي الوم ذاتي على

خسة فعلتي، عدتُ أجر عربة خيبتي وأقرح عيوبي متحولا إلى عالم التأفف والندم، صرت أكره نفسي الهزيلة، وهي تزحف خلف خيال لا يتوقف دفقه.

صرت أتلمس وجهي وأنظر لذاتي بالمرآة بخجل.

يا ترى؛ ماذا جرى لي وأنا أزحف دون وعي خلف كل فاتنة؟

حينها هجست كم أنا صغير أمام تلك الفتاة، لما فيها من تحد وإصرار وإيباء وقوة وشراسة لعبور مفازة الفقر نحو النجاح. حينها هجست بعصا سهير تهفو على رأسي، لأستكشف جوف غابة الوحدة والهجر التي تكبلتُ بها في لحظة نسيان.

هجست بذاتي أصغر شأنا من تلك المراهقة، وأحقر من ذلك الجربوع الذي يتبع الحياة، لمست ذاتي دون عمق حقيقي. لا أدري أن كان سلوكي الغير متزن يقودني لطبيعة الناسوت أم هي حالة تجرد من الايمان واللاهوت، أم رنا سلوكي لـ عسعسة شيطانية أنستني واقعي.. كأني بت اسبح خارج نطاق المسحة البشرية، حينها صرتُ أستنسأ ذاتي اللحظة الإيمانية، كي لا تسقط في مطبات الشك والقدر سقوط الحجر.

عدت أنظر إلى اللوحة مرة أخرى، هجست بها تجردت من كل الأفكار التي غزت ذهني، تبددت التفسيرات عن بكرة أبيها، هجست بها لوحة عادية فقيرة بريعها. كأني أخطأت في تقديري وبعد تفكيري....

لكني ما أن ركزت بنظري على وجه الفتاة؛ حتى غمزت لي!! دهشت، تطايرت ظنوني من رأسي، غدتْ الوانا عبثية تنتشر على اللوحة، تلونت عينيها وشفتيها ووجنتيها بتلك الظنون..... ابتسمتْ لي!! صعقتُ ذاتي. روح ما من روح زوجتي تدور في ملامح وجهها، ترى من تكون؟..... أتكون متلبسة بجنية؟ أم جنوني بزوجتي شط بها، صار يغرز ملامحها في خيالي ونفسي وجنوني؟...

تركت الغرفة، دخلت للحمام لأستحم وأغتسل، لأجز العقد والارق الراكد عن ذهني وذاتي، صرت أقرأ آيات التعويذ، كأنَّ الحالة مقرونة بالوحدة والفراغ الذي ركب فكري، كأني لا أستطيع تخطي عجزي منذ أن فارقت زوجتي، بت أنوس في ذكراها، أتيه في مفاتنها ومفاتن كل سليطة حسناء من النساء.

تلك اللوحة أوحت لي إلى ضرورة التخاطر والتخاطب مع زوجتي التي فارقتها منذ يومين، فهي في غي وأنا في غي، وعسى أن أكف عن حركاتي الصبيانية. كلانا يبحث عن الفرصة، في سعيينا عبور حاجز الظرف الطارئ، لذا أخذت الهاتف وطرقت رقمها... صار يرن الهاتف بشوق وهو يبعث إشارات استغاثة إليها.

وقبل أن تستجيب للنداء كنت قد سرحت في سهد غياثي، كأني صرت أسمع صوت استغاثتها في قلبي قبل أذنيَّ، وفي روحي قبل وجداني، وجدت ذلك الخيط من العناق قد تعلق برنين الهاتف، ملتفا على عنقي، الشوق تعلق بفؤادي وأنا أنتظر

سماع صوتها الملائكي وهو يسبح في فضاء الروح كطير حط على وتين القلب.

- الو حبيبي، تأخرت في اتصالك، لم أود أزعجك حتى ترتب أمرك...
- حبيبتي صدف، أنا في شوق كبير إليك، منذ فراقك وأنا أشعر بذاتي مريضة، لا أستطيع مقاومة سلطان الفراق، أشعر بتيه وريبة بيني وبين نفسي وكأني قد أخطأت بسفري، أشعر بغصة تخنقني حين أجد ذاتي وحيدة مركون بين أربعة جدران، أو حين أجد زوجا برفقة زوجته يتجول في الشوارع، افكر بك وفي كل لحظة أفكر بالعودة.
- لالا يا وائل، أنك أن عدت سنعود للمربع الأول، للضيم والهضم الذي نحن عليه، الوطن غارق في متاهة العقد، كثرت فيه التماسيح والثعابين والعقارب، كثرت فيه الجنح والجرائم، كل يحاول أن ينتقم من أخيه دون سبب، لقد غرقنا في مستنقع السرقات والنصب والدجل والاحتيال والطائفية، فلسنا من هؤلاء ولا من أولئك، حتى صرنا نكره أنفسنا بتفشي تلك العقد.
- صحيح يا فاتنتي، أني بت لا أقاوم الوحدة وأنا لا زلت في بداية المشوار، فما بالك إذا ما طالت مدة الفراق. أشعر بفراغ كبير يعصر السم في كأسي، يغطي على حدقي وعالمي الواسع بشيء من النكد والتخوير، كأنه وحش يتبع ظني، يود أن يفترسني، أنت تقتلين الفراغ

في العمل، لكني أهجس به حبل يلتف على عنقي يخنقني بحبل الغربة دون أن أستطيع مقاومته.

- وأنا مثلك ولكن دعنا نبحث عن فرصة حياة لأبنائنا، وفرصة سعادة لنا، الدنيا قصيرة ونحن لا نجد فيها استقرار يغنينا، بسبب تردي الأوضاع وفيض العناء والسخط المشاع والفوضى العائمة. نحن أشبه من ينتظر حتفه واحتضاره. دعنا نتحمل مرار الفراق فترة، وهيَّ فترة لا تحتسب على العمر.
- أحاول ان أقنع نفسي برأيك دون جدوى، ولكن لأجل عينيك والاطفال سأحتمل المشقة.
- الله يحفظك من كل مكروه، أن ضعتْ سنضيع، دع إيمانك بالله وحافظ على نفسك ولا تجازف في البحر.
- أحاول ذلك، رغم قلقي إلا أني التمست فيك حسن الظن، فأنت في العين والقلب.
- أطمأن وانا من جانبي وضعتُ عواطفي في ثلاجة، تحمل نغص الحياة ومشاكلها، مع السلامة.
- مع السلامة

في مكالمتي لها وجدت دافعا لاستمراري في المهمة التي جئت من أجلها، إلى جانب حافزٍ استنتجته واستقطبته من عزيمة فتاة اللوحة؛ حتى نجد تلك الصيغة الغائبة من صيغ الحياة تدرأ ذلك الطلسم الغامض الذي أغر مشاعرنا وأغرق سرائرنا.

7- البحر

عبور بحر إيجه: بين الحياة والموت

بعد أسبوع من وصولي إلى تركيا، عقدت اتفاقًا مع مهرّب ومجموعة من الشباب المغامرين لعبور بحر إيجه. تم تحديد الموعد في العاشر من أكتوبر عام 2015. لم أخبر زوجتي بقراري، خشية أن تنهار أعصابها، فالمسألة كانت معلّقة بخيط رفيع من الحظ، يتوقف على صلابة القارب، ومهارة القبطان، وما نتحلى به من صبر وتعقل. كانت شعرة واهية تفصل بين الحياة والموت.

انطلقت برفقة مجموعة من الشباب الذين تجمعوا أمام مسجد السلطان أحمد. وجدت فيهم رفقة وتشجيعًا، فالتصقت بهم هربًا من وحدتي وتيه أفكاري، رغم جهلي بتفاصيل العبور ومخاطره. تعرّفت خلال الرحلة على أسماء مثل أحمد، سالم، ناجد، رضا، عثمان، صفاء، وميثم، وغيرهم ممن رافقوني في هذا المشوار.

استقلينا عجلات خاصة نقلتنا إلى مرآب أتوكار في إسطنبول، ومنه توجهنا إلى مدينة إزمير. وهناك، اتفقنا مع أحد المهربين المنتشرين في الشوارع كالدبيب، مقابل 1200 دولار للشخص الواحد، لينقلنا إلى شواطئ إحدى الجزر اليونانية.

كانت الرحلة شاقة، محفوفة بالمخاطر، لا نشعر بخطورة البحر إلا حين نغوص في أعماقه. الخوف كان حاضرًا، يرافقه أمل واهٍ بالنجاة، معلق ببطانة القارب، وكمية الوقود، وبالهدوء الذي نحاول التمسك به. الموج العاتي، والرياح العاصفة، ورقة القارب، كلها عوامل تجعل النجاح والفشل وجهين لعملة واحدة.

لم تكن الرحلة سهلة، بل كانت النفوس مشدودة بصمت يفوق الخيال، كأننا نبحر في عنق الحيرة، دون يقين بالنجاة. وقفت على حافة السيف، بين نهاية محتومة وبداية مجهولة، بين الفشل والنجاح، في مسافة واحدة. لم نراعِ أثر الموج والرياح، ولا هشاشة القارب البلاستيكي الذي لا يقاوم همجية المد، ولا خشونة أحذيتنا. كنا نتخبط في عرض البحر، كمن مسّه الجن، نرتد خطوة ونتقدم أخرى، وسط هستيريا البعض التي زادت الطين بلة.

القارب كان كقشة تتلاعب بها الأمواج، والموج كوحوش مفترسة تمنع تقدمنا. كنا نتمسك بخيط واهٍ من الرحمة، والخوف يتسلل من داخلنا ومن حولنا. وسائل النجاة كانت نفسها وسائل الموت: قارب هش، محرك ضعيف، وقلة خبرة. لو تمزق القارب، سنغرق كالحجارة، فمعظمنا لا يعرف السباحة. لكن الله لطف بنا وأجارنا.

الريح كانت خصمًا عنيدًا، تدفعنا للخلف، ترفض مجازفتنا، تعيدنا خطوة بعد كل تقدم. كنا نتحرك ببطء، كسلحفاة تواجه تيارات هائجة، نخشى أن نعطب المحرك إن شددنا عليه. رغم

أن الجزيرة لا تبعد سوى أميال، بدت لنا كأنها في آخر الدنيا، والمسافة تتضاعف مع كل موجة.

الريح السهكة كانت قادرة على قلب القارب في أي لحظة، لكننا تمسكنا بحبل الله وبالحبل المعقود على أطراف القارب، حتى تمكنا من امتصاص صدمة الأمواج المتكررة. البحر، رغم قسوته، كان رحيمًا معنا، طالما تمسكنا بالحذر والسكينة. لكنه كان يجلدنا بسوط الذعر والندم، خاصة حين تفاقمت هستيريا البعض، وفقدوا توازنهم وثقتهم بأنفسهم.

الموجة العاتية كانت تهدد بتمزيق القارب، وجوده في البحر أشبه بقطعة قماش تتلاعب بها الأمواج. كنا نتحسس تدفق الموج من تحتنا، يرفعنا ثم يهوي بنا، فتتعالى صرخاتنا، نناجي الله أن ينجينا. القارب كان يمتلئ بالماء بعد كل موجة، فنفرغه بأيدينا أو بأي وسيلة متاحة، حتى بكعب قارورة مياه تركها المهربون.

كان البحر عميقًا، لونه قاتم، ومداه شاسع، لا شيء يدل على الحياة سوى جزيرة بالكاد نميزها. الصور تتقلب في مخيلتنا، ولا تطالها أيدينا. الموجة القادمة من الأعماق كانت أخطر من تلك التي تواجهنا، تضرب القارب من الأسفل، ترفعه ثم تقذفنا في هوة سحيقة، كأنها تنين يحاول ابتلاعنا. أوكلنا أنفسنا إلى الله، نستجيره أن يفك كربنا وينهي أزمتنا.

إلى جانبي جلست فتاة أفريقية، سمراء البشرة، تبدو من دول أفريقيا الوسطى. كانت تتقن الإنجليزية، فتحدثنا عن وجهتها.

لم تكن لها تجارب سابقة مع البحر، مثل حالتي تمامًا. ملامح وجهها قاسية، تخترقها خطوط كأخاديد ألم، ربما شعار قبيلتها، فلم أسألها احترامًا لتقاليدها.

كانت ترتدي قميصًا أصفر نصف كم، وبنطالًا أسود، يبرز طراوة زندها. كنت أرتدي قميصًا أبيض وبنطالًا نيليًا، ومع حركة القارب، كانت الأذرع تتلامس، فيقشعر البدن. شعرت بحرارة تتدفق من بشرتها، كوهج يخترقني، يلامس روحي، ينسيني هم البحر ومخاطره.

استلذيت بتلك اللحظات، كأنها تخدرني عن الواقع، لا أدري إن كانت تشعر بما أشعر، أم تعيش عالمًا آخر. لكني استأنست بها، حتى باغتتنا موجة شرسة، جعلتني أنحني للبحر، فارتميت عليها أبحث عن حضن يحميني من جنون البحر وجنوني.

ما أغراني بها تلك الفجاجة التي حاكت ولهي بتلك الفتنة، واستفزّت أحاسيسي بليونة جسدها ولون بشرتها الموائم لرغبة جامحة نائمة في أعماقي. هرشت مشاعري وهي تميس بجسدها على جسدي، فجعلتني أميل إليها ميل الغصن الأهيف. تدفقت الحرارة من لدانتها كينبوع شغف انساب في كياني، فأيقظت مكامن الاشتياق، وألهبت ناجذ الشبق، وجعلتني أتغاوى بمفاتنها المشبعة بالأنوثة، كأنها نفضت غبار الأنوثة في صرة ولهي واغتباطي بها.

كنت مهووسًا بحالة انتشاء مسهبة أسرتني، حتى صرت أقارن فيض أنوثتها بدفق أنوثة زوجتي، وذلك ما ألهب زغب العصب، وكزبر شعر الجلد. بإغرائها، جعلتني ألتصق بها لصقة الشعرة بالجسد.

لقد التمست فيها رقة وعذوبة زوجتي، بل إنني في لحظات الخيال المسهبة تخيلت ذاتي أترهف بشواطئها، خلتها هي ذاتها تجلس إلى جانبي، لما فيها من ودّ ورواء. وجدت في مفاتنها سلطانًا يفرض قدره على ذاتي، دوائر من الوله حاصرتني، حاطت بي، شدتني إلى لغز سحرها، شدتْ ظني بظنها، وأمسكت بتلابيب القدر الذي جمعنا على بساط الودّ والشبق في وسط البحر.

أضحى التوافق بيننا في أوجه حين رافقتها واحتضنتها بساعدي الأيمن من خصرها، وكأنني كنت مغمض العينين حين امتدت يدي لتلتف عليها بغنج، خوفًا عليها من أن تسقط في البحر. كأنني بها أتحدى تلك الموجة التي كانت تراقب اندماجنا عن كثب وكادت تودي بنا، حتى هجست بأناملي تغوص في لدانة حقوها. تلك الألفة ارتقت بنا إلى حالة من التسامي والانصهار، كأنها بذاتها فتحت لي أبواب مفاتنها المغلقة على مصراعيها، مثلما عبدتُ لها طرق الودّ إلى مهجي. شعرت بأن المسافة التي تفصل هواجسنا قد تماهت وذابت في لحظات الصمت والسكون التي جمعتنا تحت ظل الشبق والنسيان والوله بتلك الألفة العابرة.

لـم أجـد منهـا اعتراضًـا علـى سـلوكي العبثـي، وكـأنّ الأمـر راق لهـا، فأصـابها مـا أصـابني. قـد تكـون، فـي عرفهـا، تخيلتنـي زوجهـا مثلمـا تخيلتهـا زوجتـي، أو فسّـرت مـا بـدا منـي علـى أنـه حـرص مبـالغ فيـه علـى حياتهـا، خوفًـا عليهـا مـن القارعـة، فـراق لهـا ذلـك... هكـذا خُيّـل إلـيّ، وربمـا خُيّـل إليهـا كـذلك بـذات الكيفيـة، أو بشـيء أكثـر عمقًـا ممـا يجـول فـي خـاطري، حيـث النسـاء أكثـر تأثيرًا من الرجال في الملاطفة.

ربمـا وجـدت فـي مسـكتي وشـغفي مسـكنًا لهـا، أثـرتُ فيهـا منابـت الشـبق، وأوقـدت فيهـا فتائـل الألـق، لتبقـى تفـيض رقـة وأنوثـة فـي حجـري. ذلـك مـا دفعنـي إلـى أن أغـرس أصـابعي فـي زنـدها، حتـى شـعرت بهـا تهفـت وناسـت مشـاعرها بـرواق مشـاعري، ومـا فتئـت تميـل إلـى جـانبي ميـل السـكران لتلتصـق بـي، لـولا ذلـك الخجـل الـذي خالهـا وأغشـاها؛ لرمـت ذاتهـا بـذراعيّ، وطـوقتني بمفاتنها.

ونحـن فـي ذروة الولـه والشـك، دفقتنـا موجـة عاتيـة كـادت أن تـودي بنـا للمـرة الثانيـة، والثالثـة، بـل العاشـرة، وكـادت أن تغـرق القـارب فـي لجّـة الهـلاك. بـدت وكأنهـا إشـارة مـن الله أن أُقلـع عـن عبثـي، فسـحبت يـدي مـن تحـت ظهرهـا، وتمسـكت بحبـل النجـاة المحـيط بالقـارب، وبقيـت علـى تلـك الحـال حتـى بلغنـا شـاطئ الجزيرة بسلام، حامدين الرب على نجاتنا.

بعـد عنـاء سـاعتين مـن المحاولـة والصـراع مـع تلـك الأمـواج، تمكّنـا مـن قطـع مسـافة خمسـة عشـر مـيلًا بشـق الأنفـس، بعـدما انقطعـت حبـال العصـف والعطـف والمحبـة واليقـين تحـت ظـل

حـراس السـواحل، الـذين فرّقـوا بيننـا حسـب جنسـياتنا وانتماءاتنـا. اسـتقرّ بنـا الحـال فـي ليلـة عجفـاء داخـل إحـدى خيـام جزيـرة ميتليني اليونانية، كلٌّ في قاطعه.

وفـي اليـوم التـالي، كنـت قـد حجـزت غرفـة علـى مـتن بـاخرة عملاقـة نقلتنـا إلـى العاصـمة أثينـا. ارتقيـت البـاخرة وسـط جمـع غفيـر مـن الحشـود مـن مختلـف الجنسـيات، يزيـد عـددنا عـن ألفـي شـخص. بحثـت عنهـا طـويلًا بـين الطوابـق وعلـى السـطح، دون أن أجد لها أثرًا.

فـي البـاخرة، غلبنـي النعـاس، فنمـت نومـة أهـل الكهـف مـن فـرط الإنهـاك الـذي أصـابنا. أخـذتني الإغفـاءة علـى مركبهـا حتـى شـفير الفجـر، حـين صـحوت علـى لسـعة البـرد وترنيمـة النـوارس وهـي تسـتقبل البـاخرة بفـرح. كانـت رحلتنـا قـد امتـدت قرابـة تسـع سـاعات، تحركنـا مـع ولـوج الشـمس فـي قـوس الغسـق، لنسـتقر في ميناء أثينا مع أولى خيوط اليوم التالي.

أثينا

مـا إن وطئـت أقـدامنا أرض أثينـا، حتـى انسـاب شـريط ذاكرتـي يسـتعرض تاريخهـا العريـق، عبـاقرة فلاسـفتها، وعمـق ثقافتهـا التـي أغنـت الفكـر الإنسـاني بنتـاج الحكمـة والرشـد. منـذ نعومـة أظـافري، كنـت أترقـب تلـك المدينـة التـي تغنّـى بهـا التـاريخ، مدينـة سـقراط وأفلاطـون وأرسـطو، طـاليس وفيثـاغورس، مدينـة الفن والفكر، التي أضاءت وجه الحضارة بنورها وفتنتها.

أثينـا، عاصـمة اليونـان وأكبـر مـدنها، تحمـل اسـم آلهـة الحكمـة الإغريقيـة، وتختـزن فـي طياتهـا آثـارًا شـاهدة علـى مجـد الفلاسـفة وعبـق التـاريخ. لطالمـا راودنـي حلـم أن أتـنفس هواءهـا، وأتلمـس ثراهـا، وأتأمـل معالمهـا، علّـي أستشـعر رذاذ الحكمـة الـذي عبـق وجه الزمان.

اسـتأجرت غرفـة فـي فنـدق نـانو، وسـط المدينـة، قـرب سـاحة أمونيـا، فـي منطقـة شـعبية تعـج بالحركـة والباعـة المتجـولين. كـان الموقـع مثاليًـا، فوضـويًا، نابضًـا بالحيـاة، يغنينـي عـن الوحـدة والكآبة، ويمنحني فرصة لاستكشاف المدينة دون عناء.

أمـام الفنـدق، كـان يقـع مـرقص ليلـي، نايـت كـلاب، عـالم مـن الصـخب والعبـث، يثيـر فضـولي ويجـذب نظـري مـن شـرفة غرفتـي. كنـت أراقـب الـداخلين والخـارجين، أسـتطلع وجـوههم، وأتأمـل تحـولاتهم بـين الـدخول والخـروج. يـدخلون أنيقـين، متـأنقين، واثقـين مـن أنفسـهم وشـياكتهم، ثـم يخرجـون منهكـين،

متضعضعين كالمشعوذين، فاقدين للاتزان، كأنهم عبروا بوابة تغيّر الذات.

ذلك العالم، عالم الليل، عالم المجون والجنون، يستهوي العشاق والمراهقين والمخمورين، الباحثين عن لحظة نسيان، عن وهم سعادة، عن مهرب من واقعهم الكئيب. عالم تتداخل فيه الألوان والظلال، وتتشابك فيه الرغبات والضياع، حيث لا تنتهي الحكاية عند الخروج، بل تبدأ رحلة أخرى في دواليب الفكر والندم.

مشاهد كثيرة علقت في ذهني: امرأة تضحك ضحكة هستيرية، تلفت الأنظار، تثير الضحك، كأنها دمية إلكترونية تهتز بسمنة مفرطة وسُكرٍ طافح. رجلان يترنحان، يتكئ أحدهما على الآخر، يحاولان الثبات في عالمٍ فقدا فيه التوازن. رجل آخر، يكرع ما تبقى من قارورة خمر، فينسكب عليه المشروب، ثم ينهار على الرصيف، محطمًا زجاجته، محاولًا عبثًا استعادة ذاته.

كنت أراقب، أدوّن، أستمتع وأتأمل، حتى راودني فضول الدخول، لا لألهو، بل لأستطلع، لأفهم، لأرى بعين الباحث ما يدور في ذلك العالم الغامض.

*****

كانت توجد في نفس الشارع مقهى يديرها شاب مصري، كنت أجلس في مقهاه بعد فترة الغداء أو في أوقات الفراغ بعد أن

أنهي تجوالي في الشوارع، تعرفت على صاحبها عادل، حينها سألني عن وجهتي فقلت له:...

- إن شاء الله ذاهب إلى السويد.

قال لي ناصحا:....

- الطريق غير آمن، وكذلك طويل وشائك... ما رأيك بجواز مزور ينقذك وينقلك بساعتين إلى السويد، كما أنه رخيص قياسا إلى ما ستصرفه على نفسك لو ذهبت سيرا على الأقدام.
- عظيم أين هو؟ وكم سعره؟
- أنه بألفي يورو، أنه جواز شبه منتهي، لم يبقى به من الزمن سوى أياما معدودة، وهو لشاب من عمرك ومن أصل عربي، أي أن مسالة الشبه بينكما واردة.
ذلك الشاب كان قد وضع جوازه عندي وطلب مني تصريفه، بشرط أن تسافر خلال أسبوع من الآن.
- جميل، أين هو؟ أني ارغب بالسفر خلال اليومين القادمين، ولك مني خمسون يورو هدية على ما تقدمه لي من تسهيل. ولكن قل لي كيف يبيع جوازه بهذا السعر؟
- أنها أوربا، يأخذ منك المبلغ ويذهب إلى السفارة ويدعي بأن جوازه سرق منه أو ضاع منه، يعوضوه جواز سفر ومبلغ من المال في نفس اليوم. وبذلك يخرج من العملية بمبلغ محترم يعوض ما صرفه خلال رحلته وتجواله السياحي.

- هههههههه، أنها تجارة إذا.. هل تعلم أني قضيت مدة ستة أشهر من الأعصاب والتعب والمتابعة في تجديد جواز سفري مع دفع مبلغ قيم من الرشاوي للعاملين في دائرة الجوازات وأنا داخل وطني.
- هذا حالنا وسلوك دوائرنا، الله ينتقم من هؤلاء...

أخذت الجواز ودفعت لصاحب المقهى المبلغ كاملا، مع خمسين يوروا هدية له.. بعد ذلك اتجهت لمكتب سفريات في ذات الشارع، اقتنيتُ تذكرة لستوكهولم بموعد قريب، لأعود للمقهى وأخبر السيد عادل عن موعد مغادرتي أثنا، مبينا له تذكرة السفر. ليخبر بدوره الشاب السويدي عن موعد مغادرتي أثنا، كي يراجع سفارة السويد من أجل استخراج جواز سفر جديد له بعد مغادرتي اثنا.

في المساء وجدت ذاتي تخور أمام المرقص، تود تجربة المرقص للاطلاع عن ما يدور في داخله قبل ان أترك أثنا، لتبقى فكرة تجنبي المطبات تطاردني كعصا سهير...

8- المرقص

في اليوم التالي، نمت الفكرة في مخيلتي وتضخّمت، فقررت دخول المرقص. وجدت نفسي حرًّا، بلا وازع ديني أو شخصي، أدور أمام باب "النايت كلاب" كدبور يفتش عن سرّه بشيء من اللهفة الغامضة. لم تكن رغبة في الانحدار نحو النزق الذي يفيض به المكان، بل فضولًا ملحًّا لاكتشاف أسراره، ومقارنة طبيعته بملاهي العراق، وتغيير نمط سلوكي الذي اعتدت عليه.

حين هممت بالدخول، اشترط عليّ البواب أن أكون بصحبة سيدة. وقفت قرب المدخل قرابة نصف ساعة، أترقب الزبائن، أولئك الذين سلبتهم الغربة والوحدة إرادتهم، وغرّرت بهم غواية الليل والخمرة. كنت أبحث عن امرأة منفردة، أُغلف بها رغبتي، وأُلبسها نية الدخول.

وإذ بسائحة ثلاثينية تقترب من الملهى، بدت بملامح عادية، تتخبط قرب المدخل، وكأنها تجهل شرط الدخول. اقتربت منها، تأبطت ذراعها، وقلت بالإنجليزية:

– أنا اسمي عماد، الدخول يتطلب أن تكوني برفقة رجل... هههه، ما رأيك؟

– أنا كرستينا، هههه، جميل منك أن ترافقني يا عماد، هيا بنا.

هـزّت رأسـها بالموافقـة، بالكـاد تفهـم الإنجليزيـة. دخلنـا معًـا، دفعت عشرة يورو لكل منا.

مررنـا بمـدخل يـؤدي إلـى سـرداب، وفوقـه غـرف دائريـة حمـراء، مرتبـة كبـتلات وردة جوريـة، تطـل علـى المدينـة بشـرفات صـغيرة. تلـك الغـرف تُحجـز للعبـث بعـد السـكر والـرقص، ويؤدي إليها مصعد كهربائي وسلّم دائري.

السـرداب كـان صـالة رقـص واسـعة، يغمرهـا ضـوء خافـت كأنهـا مخنوقـة بوشـاح مـن الظلمـة. الطـاولات الخشـبية موزعـة حـول المسـرح، الـذي يرتفـع عـن الأرض بمتـر، وتحـيط بـه فسـحة دائريـة للـرقص. خلـف الطـاولات، مـن جهـة اليسـار، سـور يحـيط بـدورات الميـاه. المسـرح مـزركش بـألوان الطيـف، مخصـص للفرقـة الموسـيقية والمطـربين. الصـالة مكتظـة، بالكـاد تجـد فيهـا موطئ قدم.

جلسـت أنـا وكرسـتينا قـرب المسـرح، وفوجئنـا بترحيـب مجموعـة مـن الزبـائن. لا أدري إن كـان تـرحيبهم بـدافع اللطافـة أم بفعـل الخمر الذي أنساهم بلادتهم، أم أنهم شعروا بغربتنا فأكرمونا.

خـلال الحـديث، عرفـت أن كرسـتينا تسـكن فـي فنـدق قريـب مـن فنـدقي فـي دوار أمونيـا، فتبادلنـا أرقـام الهواتـف، وتواعـدنا علـى لقـاء فـي اليـوم التـالي. شـرحت لهـا رغبتـي فـي الهجـرة إلـى السويد.

لاحظت أن المرقص مخصص لكبار السن، لم أرَ فيه شبابًا، أصغر زبونة كانت في منتصف الأربعينات. نحن فقط من الثلاثينيين، لذا ربما كان الترحيب بنا استثنائيًا.

بدأت كرستينا تكرع البيرة بنهم، أما أنا فكنت أجاملها، أضع الكأس على شفتي دون أن أرتشف، فأنا أبغض الكحول. بقيت متيقظًا، بعيدًا عن السكر، رغم صخب الموسيقى الذي يكاد يصمّ الأذن. بعد وقت، شعرت أن أذني اعتادت الضجيج، تجاوزت قرفه، وبدأت أندمج مع الأجواء.

حين عزفت الفرقة لحنًا راقصًا، هبّ الجميع إلى المنصة، فانخرطت معهم، رغم أني لا أجيد الرقص الغربي المبني على حركات القدمين السريعة. وجدت نفسي أقفز بينهم كقرد، لكني شعرت أني أمارس رياضة تنشط البدن والقلب، كشطت عن جسدي الخمول، ولامست تغييرًا في نمط سلوكي المعتاد.

في الحقيقة، لا بد من تغيير في نمط السلوك العام لفهم الحياة والاستمتاع بها، حتى لو لم يعجبك ذلك النمط. فالحالة جزء من أسرار الحياة، لتنسى غصة الغربة والهموم. الرقص فن فوق الفنون، مركّب من عناصر توافقية وغير توافقية.

وجدت نفسي في موضع غريب، لا يوائم سلوكي المعتاد، لكني شعرت بمتعة تتسلل إلى داخلي كالماء المتسرّب من المواسير. شعرت بحرية في الحركة، برخاء في النفس، غدوت بين النسوة كطير يجوب فضاءات ذاته. المكان

والفوضى منحاني حرية واسعة، لا أحد يهتم، لا أحد ينتقد، لا أحد يشمت أو يقلل من قيمتي.

استمتعت بالرقص، حركت عناصر شخصيتي الخاملة والغير توافقية عن أماكنها، نزعت شخصيتي الحقيقية مع رداء كبريائي داخل المرقص، صرت لا اختلف عن الجمع سوى بلون البشرة. لأعطي ذاتي دفقا من الحيوية والتحدي، اثرت أن اجازف بذاتي بين النساء، جعلتها جزءا من صيغة الحياة ونمطها، جزءا من سلوكيات الشخص والشخصية المقابلة. جعلت شخصيتي صورة مرئية وغير مرئية للعيان، لتفتن المقابل. حينها هجست بذاتي تخطت حاجز الخجل، تجاوزت عقدة الوحدة وما يتبعها بعد اندماجي مع كوكبة من الراقصين.

ليس من المعقول أن يعيش الأنسان حياته على نمط وسلوك واحد من المهد إلى اللحد، كآلة جز دون شعور واحساس، ففي نهاية الأمر لن يجد في حصيلته سوى كم هائل من العراقيل والالتباس مكومة في طرقه، لا تمنحه سوى الكآبة والوحدة والتوحد.

ليس ضرورة أن تئم النوادي الليلة، هناك مجالات كثر نخجل أن نمارسها، أو لا نشعر بها، نهجس بها لا تليق بأعمارنا، مثل لعبة الطائرة، الريشة، الركض على الكورنيش، الجلوس في المقاهي، البيع في الشوارع، السياحة الطبيعية في مناطق جذابة، السباحة في الأماكن العامة.... الخ. وأحيانا لا نجد مجالا لحث الذات في تلك المعتركات، لكن علينا أن نصنع لأنفسنا سَفَنْ نتنزه بها حتى في مخيلتنا لنستطيع أن نقحمها في

المجالات العامة والخاصة أن صدفتْ، نخلق اجواء حريرية تشعرنا بنعومة الحياة، لنتمكن من إخراج الذات من قوقعة الشك والريبة والغيب والعيب والنميمة والكرامة التي ندفن أنفسنا بجحورها بسبب العادات والتقاليد التي خلقناها بأنفسنا.

والحقيقة أني وجدت في النادي الليلي فرصة أتنفس به الصعداء، كون المكان مخفي عن الأنظار من جهة، وكون عملية الرقص أفرزت عن مخزون طاقة كامنة في داخلي لم التمس ضفائرها من قبل بهذه البهجة والفتنة. كشفت عن وجه روح لطيفة، مغترة بالمشاركة الجماعية لائذة خلف وشاح من الخجل، نشطت اللياقة البدنية في الجسد حتى لو لم أجيد الرقص، حيث لا أحد ينتبه أو يراعي الفروقات مع الهيصة والصخب الدائر.

شعرت بالدماء تتدفق في عروقي، جددت خلايا المخ، قشطت دهونات الكسل من على الجسد، تحررت الذات من العقد، مما شجعني على تخطي عجزي، فدخلت بين مجموعة نسوة يفوح من اجسادهن عطن الخمرة، سكارى، نحوت خلف فتنتهن، صرت أقبل هذه وأمسك أثداء تلك، انحدرت خلف الحركة والرعونة. رغم أني لم أجد فتنة حقيقية تشدني إليهنَّ، لكن الفوضى رمتني وسطهن لأعيش الحالة. كانت مسألة فضول وتجني لا أكثر، مع قبول وعدم ممانعة من قبلهن، وكأنهن شجعني على تلك السلوكيات الوقحة. حتى كرستينا تلك التي صحبتها معي لم تغريني أنوثتها، لنحافتها تهجس بها مبرومة وكأنها تعيش على أكل الورق.

بعد أن مخر السكر الأذهان اختلطت الوجوه وذابت العزة والكرامة والشخصية في لون الفوضى، صار الكل يعبث خلف غيه مع من يشاء، يبحث عن الفرصة الغائرة في عجيز نافر أو صدر ظافر ممن تقابله في الميدان، وأن لم تكن زوجة أو صاحبة.

كنت أهجس بذاتي أصغر المتواجدين سنا، لذلك لاحظت بعض النسوة يقتربنَّ مني دون إشارة مني، أحداهن أرتمت بحضني، وأخرى قبلتني ومن ثم مدت يدها إلى قضيبي. نفرت منها، تحولت إلى أخرى أكثر رشاقة وفتنة، وجدت يدي تلتف على خاصرها، استأنست لي، تمسكت هي الأخرى بي، قبلتها بشراهة، حتى غصت ذاتي في لدانة مفاتنها، صارت تسحب بي وتجرجرني نحو تلك الغرف المليئة بأسرار الوحشة. انفردت بي بعيدا عن صخب المسرح، تأسفت لها بعد أن عدت لذاكرتي، تذكرت عصا سهير والمكان الموبوء بالأمراض الفايروسية والجنسية من هربس وإيدز وسيلان وامراض زهرية والتهاب الكبد...ووو.. الخ.. بقيت تتوسل لأسايرها لكني أبيتْ، وما أن عجزت؛ حتى تركتني غاضبة وهي تنظر إلي نظرة شزره بعينيها الفيروزتين.

عدت للمرقص أمارس لعبة الغواية، فتنت بي سيدة اربعينية، غير أني نفرتُ منها هي الآخرى، كونها عفرت وجهها بكم هائل من ألوان المكياج، ما أن ساح العرق المنز على ملامح الوجه؛ حتى بدت أشبه بلوحة عبثية سريالية، كانت تود إخفاء

خطـوط العجـز فـي وجنتيهـا وتحـت العينـين إلا أن الجهـد الـذي بذلته فضح سنها.

مـع أن المـرأة بمسـحة شـفيفة مـن المكيـاج تسـتطيع أن تسـتقطب الرجـل، إلا أن بعـض النسـوة يـتهنَّ فـي تخيـل ميـول الرجـل، يبـالغن فـي صـبغ وجـوههن، فيضـعن فـي التعبيـر عـن أذواقهـن والتغيير الذي يردنه.

بعـد أن أجهـدت ذاتـي وبـان التعـب فـي وعلـى الجسـد، سـحبت ذاتـي، تركـت صـالة الـرقص متجهـا للحمامـات لاغتسـل، وجـدت سـيدة هاويـة فـي ممـر الحمامـات تحـت رائحـة النشـادر التـي تعـط منها وهيَّ غارقة بضحكة هستيرية.

هكـذا دواليـك تجولـت بيـنهن، مـررت علـى تلـك وتلـك حتـى عجـزت وشـعرت بـالقرف والملـل، هجسـت بهـنَّ أبقـارا كأبقـار السويد لفرط سمنهن بسبب أكل لحم الخنزير، سوى القلة منهن من الذوات اللاتي يفضلن النباتات.

قضـيت فـي الملهـى مـدة سـاعتين مـن الـزمن، قرفـت الحالـة بعـد أن تشـبعت بالصـور المقرفـة، كـان بإمكـاني ممارسـة الجـنس مـع أي مـنهن، لا أنسـى تلـك السـيدة التـي تمسـكت بصـاحب البقالـة المجـاور للملهـى، تبغـي ممارسـة الجـنس معـه فـي الشـارع، فيمـا كـان يحـاول إبعادهـا وطردهـا دون أن يفلـح؛ حتـى مضـت مـع شخص آخر من الخارجين من الملهى.

كانت لعصا سهير وعهدة زوجتي دورا في تهذيبي وفي تجاوزي حالات الدناءة المتبادلة بيني وبينهن في تتبع ظني، صارت توهط الذات بمجرد ان تسهو خارج حدود اللياقة والمنطق. صار الورع يعطر الذهن إذا ما اجتنبتني الهيافة لدروب التسكع والرذيلة.

كانت فترة إجازة واستراحة واستكشاف وتبديل صيغة الحياة، فترة تغيير واستطلاع، تنفست بها هواء الحرية المنفلتة، عشت خارج حدود الكون الذي أعرفه، تعرفت خلالها على جزء من عادات وتقاليد المجتمع الغربي المناقضة لعاداتنا وقيمنا، فقراتٌ تجربة أضفتها لتجارب الحياة التي مررت بها.

الأثنين

2017 /10/16

9- العقربة

من خلال تلك الأحداث التي مررت بها في تركيا واليونان شعرت بأن الشيطان كان قد وضع غره في صحني، صار يلاحقني، يوسوس لي، يفرش بساط الفرص أمامي لانجرف وانحرف عن المسلك العام الذي تعودتُ عليه، يدعوني إلى التبجح خلف العلل، يدفعني إلى الانزلاق في وهدة الموبقات التي كلما حاولت أن اتحاشاها تتفتق مسالكها أمامي، أجد نفسي في بؤرتها دون إرادة. هكذا تعرضت لوازع أعمى بسبب سفري دون زوجتي.

في كل أقداري وفي كل بقعة من كياني وفي كل نقطة من ظني وتوقعاتي أجد شاخصا وهميا يقودني، يتحرك أمامي، يحرك لي ذيل الفتنة فيغريني ويغيرني، يحرضني على الولوج في معترك الوله والتحرش. نفسي اعرفها، هيفاء، أمارة بالسوء، لا تصبر على سقم ولا تحتمل بهتان وهذيان وجد، تقف مبهورة أمام الأنوثة، عاجزة على تجاوزها، حيث تجد في شمس الأنوثة دفئا ينتشلها من تيهها ودفقا يزيح عنها شجونها، لذا أراها عاصفة مهتاجة أمام كل انثى وبحالة هذيان وتحول فسيولوجي دائم..

حالة مريضة تلوك صفاء ظني وفكري برغاء فرص الفحش والمعصية، أي أني أجد ذاتي دائما في طور التحدي أو طور التجارب للذات الأبية دون إرادتي، لذا أهجس بنفسي أضحت

مريضة منذ فراقي زوجتي، وكأني واقع تحت ضغط تأثير برج حبيبتي أو برج النساء.

فعلا صرت لا أشعر بذاتي إلا وأنا منجر خلف ضعفي وهواني مع ولوج طيف زوجتي الذي لا يفارق مخيلتي، بحيث أينما أذهب أجد قوة مغناطيسية أو سحرية تتمثل لي بصورة زوجتي تتلبس النساء اللاتي اقابلهن، وكأن هذا السخط من سخرية القدر تتلاعب به المعطيات التي تتلاعب بأعصابي، مسبوكة بقدر ما أو بسحر فتاة تجذبني لمفاتنها بقوة كهرومغناطيسية.

سحر ما أهجس به كاللمعة في العقيق يتموج فوق بشرة أجساد النساء، يتلون بلغز صفاتهن، حالة قدرية، تسلط الضوء على ضعفي فأشعر بمغناطيسية الأنثى تجذب كل مشاعري وهواجسي وأحاسيسي، تلعب بأعصابي لعبة الكرة، تلوك ذاتي بوحل من الشغف والشغب، حتى أجد ذاتي مستسلمة لسلطان الأنوثة بمحض إرادتها؛ وكأن القرار قد أجتث إرادتي من صلبي، أو انقادت إرادتي خلف أضواء الفتن كطفلة لا تفقه شيء عن الخطورة. لذا صارت تهفو خلف كل جميلة دون إرادة ووجل، فأتوه بفكري وعقلي بين اطباقهن بحثا عن اللذة والسعادة.

حين أجد نفسي وحيدة كنت أتبعهن برجاء، رغبة بمقارنتهن بما تملك زوجتي من سحر وفتنة. ولن أدرك ذاتي إلا حين أشعر بلسعة عصا الضمير توهط ذاتي، تتقصد زلتي.

كثيرة هي الأحيان التي أجد بها ذاتي مسيرة في خياراتها وليست مخيرة، بت أخاف على نفسي من شرورها، من أن تزج بي في بئر العقد ومطبات القدر التي ليس لي طائل بها.

لرهافة روحي بت أخاف تجني الفتيات اللاتي أصادفهن في الطرق، لذا حين رجعت للفندق، بعد أن عشت فصلا دراميا مع كرستينا وهي تتسكع في شوارع أثينا، بعد أن أولغها السكر في عالم الغي والعبث، تفاجأت بأخرى أشد فتنة منها تجلس في باحة الفندق، وكأنها على موعد معي قبل أن أشد الرحال إلى السويد. **بقيت في أثنا أربعة أيام، وفي يوم الخامس في السادس عشر من أكتوبر 2017 كان موعد رحلتي إلى السويد.**

ما أن دخلت باحة الفندق؛ حتى وجدت فتاة ثلاثينية غاية في الرقة والجمال تجلس في مقدمة الباحة على كرسيي منفرد وعيناها شاردتان نحو مدخله، ترتدي بلوزة شفافة سوداء نصف كم، تحلق رقبتها سلسلة ذهبية معقودة بصليب فضي صغير يفتن صدرها البض، بحيث كان يرفأ في وادي النهدين ببروز واضح كشعلة في وسط صحراء صدرها، خاصة مع ضغط رف حمالة الصدر من الجانبين والأسفل تبدو التضاريس الجذابة ككثبان رمل تحيط به.

لسحرها؛ هجست للنهدين ألسن تحاكي شبق العين بجدل فاضح، تقاسمني الرواء بذلك الحَوَرْ، تميد الحوار بين العين والنهد بلغة صمت رخيمة، لقد غررت بها كمراهق يتأمل فتنة

وأنوثة صماء وبالذات في تكور الحلمتين وطراوة الهضبتين ولون البشرة الخمرية.

كانت الفتاة مغنوجة، ترفأ بحسن ملائكي، شفافة، تنتظر في مدخل الفندق وكأنها تجلس على جمر من الصبر، تتأمل قدوم من ينتشلها من المأزق التي هي فيه. وجدتها تود التشبث بعنق الداخل للفندق، ما أن دخلت للفندق حتى لفتت نظري؛ حتى هجست بها لسعتني بنظرتها. مع تخطي عتبة المدخل انجذبت لها، كعقربة أفرزت سم فتنتها بالجسد، لما فيها من سحر وجاذبية.

شد نظري الصليب المحلق برقبتها، خلتُ عينيَّ طيرا هفا إلى واحة الصدر، خلتهن يمسحن فضاء الفتنة بشبق مذل أخرجنني من حقيقة كياني وشخصيتي كعابث لا يبالي بالقدر. تمنيت أن تكون روحي ذاك الصليب لما لتلكم الأثداء من تفلك ولدانة. بحيث ما أن دخلت الفندق؛ حتى استقطبت نظراتي ملامحها الأخاذة، المدهشة، جعلتني اتحرى عن لمعة الصليب وبهجة الصدر، عن فيض السحر المحيط به والمنعكس من البشرة.... كأنه عكس الفتنة المشعة إلى عيني، فأرسل لي إشارة استغاثة، لأنتشي ضوء ذلك السحر قبل أن ينوء السحر لمجانة القدر، قبل أن تجعلني أميس الرغبة بتلك النهود بحرشة وغيٍ من الفكر والقلب تفقدني صوابي.

من خلال جلستها على كرسيها المنفرد، علمت بأنها ليست على ما يرام، كمن يكمن في صرته قلق ما، هجست بها مهزوزة، حائرة، كفراشة تحاول تجنب ريح يستفزها قبل أن

تستقر على وتد رغبتها، تخفق بنظراتها بعيدا عن الأجواء، سر ما شاق ظرفها، جعلها تستغيث بمن يدخل الفندق.

لانبهاري بها هجست بها وكأنها تحمل بعطفة صدرها قطتين من الفراء الفضية، تداعبان قميصها اللدن برهاوة. برغبة ذاتي وددت مداعبة تلكم القطتين بالفطرة، لما فيهن من جاذبية وغواء.

كانت الفتاة منعزلة بوحدتها، كأنها تنتظر رجاء ما ينتشلها، شخص ما يعينها. لذا حين دخلت الباحة؛ التفتت إليَّ راجية أن أجل عنها ذلك العناء والعبث، أن أجيبها عن سؤالها، حيث قالت:...

- ممكن أستخدم هاتفك للحظة، كأنَّ هاتفي قد فض شحنه.

استجبت لها بسرور وعيني منصبتان على طراوة الثديين، فقلت لها والرغبة جامحة في ملاطفتها:....

- تفضلي يا سيدتي....

أخذت الهاتف وفي ثغرها ازفت ابتسامة لطيفة، صارت تطرق رقما ما مسجلا على ورقة في حافظتها، في محاولتها المتكررة لم تجد استجابة آنية، كأنَّ الهاتف المراد حثه جنح خارج نطاق الخدمة الشبكية... حينها كنت أنظر بنهم لتدفق مفاتن صدرها بحيوية الذي فيه نزق صدر زوجتي، تلك التي لم تزغ حدقي عن نضارتها.

بقيتُ شاخصا كالوتد، أعاين على فراء القطط المخفية تحت حمالة الصدر، طافت بأروقة الفتن بشيء من الجرأة وعدم المبالاة، شعرت بأني دغدغت زغب مشاعرها، وكأنها انتبهت للحظة ما على فجاجتي، فاستأنست ببريق مفاتنها. لكنها بقيت على رصيدها ووضعيتها دون حراك أو مبالاة، لم تغير من شكل جلستها، هكذا تراءت لي كحمامة تخفق بسماء الوله.

لا أدري أن كانت قد أدركت ما كان يجول في خاطري أم لا؟

لا أدري أن كانت تعمدتْ إبراز مفاتن صدرها أم لا؟

لا أدري أن كانت بذاتها تهجس راحة بسلوكي وعبثي أم لا..

لكنها تصنعت اللامبالاة.....

وبعد تكرار محاولتها أعادت إليَّ الهاتف دون أن تنجح محاولاتها، حينها قالت لي بلكنة إنجليزية:..

- شكرا.... الهاتف لا يشبك.
- هل من خدمة ممكن أن أسديها أليك...
- تأخرت عن المطار وسائق التكسي الذي تواعدت معه لا يرد، وأني أخاف أن تقلع طائرتي.
- متى موعد طيرانك؟
- بعد ساعتين.
- جميل جدا؛ أنا خلال عشرة دقائق أغادر الفندق للمطار، على قدر تهيئة حقيبتي، أن كانت لك رغبة بمرافقتي أكون سعيدا بذلك.

- عظيم، شكرا لك، إذا أنا بانتظارك..
- وهو كذلك.

تركتها متجها لغرفتي لأضب حقيبتي، وقلبي المسكين بات يخفق بشدة وكأنه خرج عن طوره، ما عاد يبطل اضطرابه، ظل في سره يتبع فتنة تلك العقربة، يسرد لها جنونه كآلة مورس مضطربة، بات يطرق أذنيَّ بسرعة نبضاته الخلجة، مستفسرا عما تكون تلك الآفة:....

- ترى لِمَ لمْ تستعن بأحد أفراد الفندق وهؤلاء الزبائن من الزوار قبل أن أدخل للفندق؟ ؟ هل فتنت بي، أم القدر قادني إليها؟....

سؤال صار يغز فكري، يحرف ذهني، يدور في رأسي كطائر الصقر يود أن يقتنص الحقيقة، يزرع الشك في قلبي وأنا أضب حقيبتي بعجالة.

في الحقيقة لم أنتبه على مفاتن وجهها إلا بعد أن عجزت عن مهاتفة سائق التكسي، حينها رفعت رأسها وشكرتني وفي حدقات عينيها نظرة رجاء لم أفهم لغزها في حينه، لكني كنت سارحا في لطافة تكور عنجرة النهدين، تلكم اللاتي شغلنني عن عالمي، نقلنني إلى حيث الصمت والوله. لخمرية بشرتها الملساء و بريق عينيها السوداء جاذبية فتاكة.

لم أخفض نظراتي عنها قط، ولم أخجل منها قيد شعرة، لقد ركب الجنون ذهني، وكأني صرت لا أهتم لما سيبدو منها أو

سيدور بيننا، وخاصة كنت جانحا في فكري خلف المجازفة باللحظة التي بها زاحف إلى المطار... لحظة هجست بها ذاتي بليدة، جهرة، غير مهتمة لما سيجري وسيؤول. واقف أمامها كشاخص سليط لا يهتز، أبغي أن أسمع منها صوت قطرات المطر، وكأني اكتسبت الجرأة من (النايت كلاب)، من ليلة أمس التي شحمت فكري بالغي وعدم المبالاة.

ما أن شكرتني حتى انتبهتُ على مفاتن وجها، تلكم المفاتن التي أوحت إليَّ بعذوبة سحر الشرق، وصفت لي ربيع المفاتن، وجدت في سواد عينيها المسحوبتان ألق واضح. وفي شعرها الفاحم أناقة تواكب قزحية العينين. لأنفها طلة جبل شامخ على الوجنتين والشفتين المغنجتين بالرقة، لأناقة قوامه يضفي كاريزما جذابة على مساحة الوجه، يوحي للناظر بشيء من الأبهة والكبرياء. كما تعنى بفم مؤطر بشفة واسعة، مغنجة بطفح قرمزي داكن ملؤها حيوية. خيلت إليَّ من دول البحر المتوسط.

وحين وضبت حقيبتي ونزلت للصالة، وإذ بها تنظر إليَّ نظرة توسم، يكتنفها شوق ورجاء. لمست في حدقات عينيها تعابير وله شيطانية مشظة، تتقصد قيافتي وشبابي. هالة غريبة من الجاذبية وشحت قامتها، وهي تقف بجوار كرسيها، تشعر بها كأفروديت أثنا، تضفي على شخصها جاذبية ساحرة، لرهافتها وجميل قوامها الرشيق..

لاحظت ذلك وجعلت ذاتي غير منتبهة، أغشيت مشاعري تماما.

قبل أن أدخل الفندق كنتُ قد اتفقتُ مع سائق تكسي أن ينتظرني أمام الفندق ليقلني لمطار أثنا، كانت لوازمي الشخصية قد جمعتها مسبقا في حقيبة صغيرة سوداء، سوى أدوات الحلاقة وفرشة أسنان دسستها في جيب جانبي، ثم حملتها على كتفي... وحين أدركتها؛ وجدتها تزيدني طولا بقدر نفاش شعر رأسها الأسود.

استقبلتني بلهفة وبابتسامة ساحرة، سحبتْ حقيبتها الحمراء التي كانت قد أخفتها خلف كرسيها، وهي حقيبة متوسطة الحجم لا تزيد عن حجم حقيبتي.

خرجنا من الفندق معا، توجهنا إلى عجلة التكسي التي كانت تقف إلى جانب مدخل الفندق. ركبت إلى جانبي في المقعد الخلفي. هُيء لسائق التكسي الذي لا يجيد الإنجليزية بأنها زوجتي.

في مشوار الطريق كنت قد تعرفت عليها، مسكت يدها، عصرت أناملها التي كانت بنعومة فراء القطط، حاولت أن أقبلها، لكني تذكرت عصا سهير التي تركتها معي، تذكرت عصا الضمير وعهدي لزوجتي على حين غفلة، وكأنَّها هفتت على رأسي فتجنبت المجازفة هذه المرة.

الفتاة من أصول إيرانية، متوجهة في رحلتها إلى ألمانيا، حيث تعمل موظفة في شركة سيارات مرسيدس المعروفة منذ ثلاث سنوات، كانت في جولة سياحية في دول الساحل المتوسط، حيث ابتدأت من إسبانيا وإيطاليا ثم اليونان، أما

مسألة الصليب فأنه لا يعني لها شيء، أنه مجرد موضة ولا يدل على حقيقة انتمائها للدين المسيحي، حتى أنها لا تهتم لإشكاليات مسألة الدين بشكل عام. ربما تكون مجوسية المذهب أو ملحدة، ربما أدعت المسيحية لتُمنح إقامة في أوربا التي تخفي تحت قناع الإنسانية وجهها العنصري..

خلال الطريق كنا قد تبادلنا أرقام الهواتف فيما بيننا، قلت لها وأنا أبغي وصلها ونيلها:..

- جئت لأبحث عن استقرار في أوربا، سأجرب حظي في السويد يا ليلى، في حالة عدم توفيقي، سأحاول الكرة في ألمانيا لأكون قريبا عنك.
- السويد بلد استقرار، ألمانيا بلد عمل، لكن لا تظن أن تجد راحة بال بعيدا عن الوطن الأم، ومع ذلك سأكون في خدمتك متى قدمت يا مناف.
- أن شاء الله.

كنت قد أغششتها باسم مزور كما كنت أفعل مع باقي النساء اللاتي صادفنني، تقبلت الوضع ووجدت ذاتي تميل لها ميل الغصن لسحر وجدته في أنفها أوقد فيَّ فتنة ومحبة زوجتي.

عندما وصلنا المطار ودعتها وكلي أمل أن ألتقيها يوما ما، وقبل أن تفارقني طبعتْ على خدي قبلة، فيها من الحرارة واللاذعة ما تجبرني على تغيير وجهتي، ولكني كنت محكم بتذكرة السفر وجواز مزور كنت قد اقتنيته من صاحب المقهى أنفا.

على أية حال، تركت تلك القبلة أثر على الخد صعب أن تنسى كالرصعة التي أتغزل بها، لما لها من دفء وشبق، بقيت تشهق بطيب أنفاسها حتى حين... حينها أعدتُ لها قبلتها بقبلة على الخد والشفة المغنجة؛ حتى استمالت بنا الأشواق لغاية التجني، حينها أسرتني قائلا لها:.....

- لك شفة من نار وصدر من مرمر لجماله وسحره.
- شكرا لإطرائك...
- لا أظن أطيل البقاء في السويد، قبلتك هذه ستقودني أليك قريبا.
- وأنا سأكون بانتظارك.

قالتها ومضى كل منا لوجهته، بقيت نظراتنا تلاحق بعضنا، وبقيت تلك القبلة التي شطرت الذهن وشطت الروح تستعر على الخد، تفيض حافظة القلب إلى مهاوي نهديها. كأني لم أرَ أنثى بفتنتها قط، بقي طيفها يدور في فلكي ككوكب يسطع في الذاكرة.

مع وداعها كنت قد أغلقتُ رتاج الذهنِ والقلبْ عن جميع النسوة من حولي إلا زوجتي، وأنا أقطع تلك الأجواء الغائمة، متأملا أن التقيها ثانية....

بقيت مسترخيا اتصفح لحظات الصمت والذهول التي قضيتها وأنا أتأمل وجهها بشوق ورغبة، متقيدا بنار تلك القبلة السليطة التي جمعت غُرز إبرة الشوق في نقطة تجعلني أنحرف في تفكيري، أنحدر نحو مفاتن جسد كل أنثى. بقيت القبلة متوهجة

فـي مكمنهـا حتـى أدركـت ثلـوج السـويد دون أن ينحـرف فكـري عـن طيـف خيالهـا قيـد شـعرة، لصـخبها وألقهـا ورونـق وجههـا. ممـا جعلتنـي اخاطـب زوجتـي لأنسـى همهـا ووقعهـا. أرسـلت لهـا رسالة استغاثة وود، حتى استكانت روحي على نار الشوق.

10- السويد

مـا إن وصـلتُ سـتوكهولم قرابـة السـاعة الثانيـة ظهـرًا، حتـى انقلبـت أحـوالي الفكريـة والنفسـية رأسًـا علـى عقـب. تغيـر كـل شـيء أمـامي، شـطّت أفكـاري، وانكمشـت شـجوني، تبعثـرت هواجسـي ومشـاعري، تـاه يقينـي، وتلاشـى ظنـي. لـم أعـد أمسـك بخيـوط الماضـي، حتـى الجـو بـدا لـي بصـيغة أخـرى، إذ انتقلـت مـن رطوبـة خانقـة وحـرارة لاهبـة إلـى بـرد زمهريـري يلـف المكان بوحدة وكآبة.

مـا إن نزلـت مـن الطـائرة بعـد أن تجـاوزت الشـمس خـط الـزوال، حتـى بـدأت أفتش فـي جـوف الحقيبـة عـن سـترة تقـي لسـعة الـريح البـاردة الناشـزة. وجـدت نفسـي أغـور فـي غابـة مـن الأشـجار الخضـرية والنفضـية، فـي بقعـة محصـورة بـين خلجـان البحيـرات، وكـأنني نزعـت عـن فكـري ثـوب الرمـل والصـحارى، لأرتـدي جلبـاب البهـاء والخضـرة وبيـاض الـثلج وزرقـة البحيرات والعيون الزرق.

وأنـا أتأمـل تلـك البقـاع المستفيضـة بلـون الحيـاة، تهجـس الخضـرة فـوق الأرض كبحـر مـن المـروج المتموجـة، وتبـدو البحيـرات كمراكـب سـفن عالقـة فـي بطـون تلـك الخضـرة، علـى امتـداد السـويد التـي تحتضـن قرابـة ثلاثـة آلاف بحيـرة. هـذا المشـهد شـجعني علـى تقبـل فكـرة الهجـرة، والبحـث عـن اسـتقرار فـي بطـون تلـك المتاهـة مـن الغابـات التـي اخترقناهـا بعجلـة التاكسـي، حيث كانت الشمس تختبئ خلف أعمدتها.

وصلتُ في أصيل ذلك اليوم إلى مركز دائرة الهجرة في مدينة فلين التابعة لمقاطعة صُرم لاند، لأقدم نفسي هناك كلاجئ. وفي صباح اليوم التالي، توجهت إلى الدائرة لأخذ البصمة وتدوين معلوماتي الأولية، ثم تم تحويلي إلى كامب "صولبكا" جنوب ستوكهولم 150 كيلومترًا، لأستقر هناك مدة سنة ونصف، أعاني خلالها من الوحدة والمشقة والعذاب.

في ذلك الفضاء الواسع من الفراغ، لم أستطع أن أوفق بين اعتلالات الرغبة وتأويلات الفكرة التي جئت بها، وبين القدر والزمن الأهوج الذي استقبلنا. بقيت أعاني الغربة، بين فجاجة الظن الخائب، وروتين قاتل من جهة، ولجة الفكر وعدم الاستقرار وضعف الفرص من جهة أخرى.

مرت تلك الفترة على الجميع بشق الأنفس، حتى صرت أعد الأيام بالدقائق والثواني، لقسوة العقد التي زرعتها دائرة الهجرة في طريقنا. الوحدة نغّصت مشاعري وأحاسيسي، رغم أن الكامب كان يضم أكثر من 250 فردًا من جنسيات مختلفة، معظمهم من الجالية السورية.

كانت فكرة الهجرة قد طرأت على فكري بشكل عبثي، تعاملت معها بلا مبالاة، كأنها لعبة بسيطة وضعتها تحت التجربة. داعبتني وداعبتها، حتى أعجبت بفتنتها كفتاة عشرينية رقت لي، واستكانت لروحي وبالي، فأيقنت أن التغيير والاستقرار في الغرب قد يكون خيارًا جادًا ومصيريًا.

دخلت في متاهات المقارنة بين الوطن والمهجر، بين الإيجابيات والسلبيات، فتكشفت لي جوانب من الجور والعجرفة، وأدركت أن الاستقرار في الوطن بات معضلة، وأن الهجرة ليست مجرد رغبة، بل قناعة وهدف ومصير. لم تعد المسألة صفقة استقرار، بل بحثًا عن الأمان والهدوء والراحة النفسية والصحة والمستقبل.

لكن ما إن تعمقت في حيثيات الموضوع، حتى دخلت في متاهة العقد، وتلاشت الغاية والهدف، لفظتهما خلف قرص الشمس، لما في الطريق من تعقيد بالغ. لم أعد أستدل على طرق السعادة إلا بقناعة العودة، ولم أختصر المعاناة إلا بشق الأنفس، حتى نسيت هدفي، وصرت أبحث عن ذاتي وقدري اللذين سحقتهما دائرة الهجرة.

عانينا في أوطاننا من التشتت والعبودية، ودفعنا الواقع غير المستقر إلى مراجعة الغاية والهدف، والبحث عن صيغ جديدة تكفل لنا النجاح والحرية. وما إن تجاوزنا حدود الوطن، حتى شعرنا أننا أخطأنا التقدير، وتركنا صرة الوطن بيد اللصوص والمحتلين. الغربة كشفت لنا تناقضات الأمور، ولسعتنا بنيرانها، وأظهرت لنا النظرة العنصرية التي يُنظر بها إلينا.

كما يقول المثل: "من ترك داره قل مقداره". بتُّ أسير خلف الظن وهوس الرغبة، أدخل الأسواق والأزقة، أجد نفسي تسير بلا إرادة، بلا هدف، في متاهة لا تنتهي. كنت بحاجة لكل شيء: للصحبة، للنسمة، للبسمة، للروح، للألفة التي أشتاقها، للطير والشجر والمطر، للخبر ومنغصاته، للألم وحسراته،

لصـــوت اليقـــين، للأغـــاني العراقيـــة الدافئـــة، وحتـــى لأدوات المطبخ والحمام التي تزيل عني همومي النفسية والفكرية.

مـع أنـي محتـاج لكـل شـيء؛ فلـمْ يعجـبنِ شـيء أقتنيـه، مـا كـان يشـغل البـال قـد محـى جدليـة الرغبـة عـن الفكـر والقلـب، لـمْ أعـد أعجـب بالمنـاظر والعمـران والأشـياء المعروضـة فـي الأسـواق، لـم تعـد تغـزل عينـي أصـداف النسـاء ولآلـئ صـدورهن لاسـتوعب مغريـات فكـري. كـأني لـم اشـاهد شـيئا يـذكر ممـا كـان معروضـا أمـام نـاظري، سـوى تلـك المفـاتن التـي شـغلت بـالي وذاكرتـي فذكرتني بحبيبتي وزوجتي.

كـأني كنـت أجـري بشـكل افتراضـي بخـط مسـتقيم، فـي مسـار يـؤدي إلـى قـوس القـدر، فـي واقـع ظنـي كنـت أجـري كثـور أعمـى بصـحراء ظنـي دون فِكَـر، حيـث لا واحـة سـرتنِي ولا شـجر آوانـي. لـذلك بـت كـالأعمى فـي طريقـي، كلمـا أشـاهد أنثـى أتعلـق بتلابيبهـا، أود مرافقتهـا، مجامعتهـا، لشـرود فكـري فـي أتـون الفـراغ والفـتن، بصـريح العبـارة كنـت أنغمـس بتلـك المبـاهج دون وعـي، دون رغبـة حقيقيـة؛ حتـى اتخيـل كـل جميلـة بمثابـة زوجتـي، فـأنغر بلمعـة السـحر ولسـعة الحسـن، فـأتبع مجـرى صمتي وشرودي بمغامرات مريضة.

هكـذا غشـتني الحالـة وكبـرت فـي ذهنـي الفكـرة؛ حتـى تجـاوزت بهـا أفـق ظنـي لأصـلُ صـرح قـدري، كـأني وددتُ أن أسـتخلص ذاتي من شر العقد فتلبست بها دون إدراك مني.

كانت الهجرة أملاً يراودني، حلماً بوطن بديل، بمستقبل أكثر رحمة. لكن ما رأيته بأم عيني، وما لمسته من تعامل، كان نقيض الإشاعة، نقيض الحلم. لم يكن سوى ضبابٍ ماجٍ في سدم التيه، زاد شكي، وأرهق فكري، حتى شعرت أنني فقدت وجودي.

في الأسواق، التمست لعنة الوحدة، قسوة لا تشدني إلى مغريات المادة، بل تذكرني أن لا شيء يبهجني سوى وجود زوجتي. هي وحدها من تزح هالة الضباب عن حدقي، تنسيني همي وقلقي، وتعيدني إلى ذاتي التي كدت أفقدها.

حاولت أن أواكب الحدث، أن أهيئ الظرف، لكنني وجدت نفسي أولد في لحظة تحترق بشواهد الزمن، ثم تنتهي بولادة لحظة أخرى مختلفة في الزمان والمكان. هكذا صرت أقفز بين أقدار متنافرة، بين فكرة وأخرى، حتى ضعت بين شتات الوطن وتحديات الغربة.

فكرت بالعمل لأتجاوز وهني، لأتحرر من قيد الهجرة، وأعود لزوجتي. أحياناً راودتني فكرة الزواج بثانية، لا لشيء سوى أن أنسى هم الغربة، لكن ما أن تخطر الفكرة، حتى تتبخر بنار الأشواق، وتذهب مع صفير الريح.

أحياناً أنجرف خلف علاقة شكلية، عبثية، مع فتاة تذكرني بمفاتن زوجتي، فقط لأقتل الوحدة. أو أبحث عن فكرة جديدة تشغلني: كتابة، سفر، رياضة... أي شيء يبعدني عن لعنة الفراغ.

في كامب السكن، لا إرادة لنا، لا سلطان. الجميع مسيّر حسب نظام صارم. الوحدة تلاحقنا، والفراغ يبتلعنا. الكامب أشبه بسجن مفتوح، وأنا السجين والسجان في آنٍ واحد.

كلما تقدمت خطوة، تراجعت خطوات. وجدت نفسي متقوقعة ككجر، تحولت إلى ماضٍ لا يغادرني. دائرة الهجرة تعاملنا بلا إنسانية، لا تمنحنا الإقامة، ولا تترك لنا فسحة للاتزان.

صرت أقتصد في المال، أبحث عن لغز النسيان في الأسواق، في البحيرة، في أدوات المطبخ، في علبة شاي، في سمكة سردين. أقاوم الفراغ بشيء من الصبر، أبحر في الخيال لأصل إلى شواطئ زوجتي، أبحث عن أصداف الذكريات، عن لحظات الألفة التي خبت أضواؤها مع البعد.

أمسياتي صارت تجوالاً في الحدائق والشوارع، أعود بعدها مثقلاً بالتعب، متأملاً أن ينقلني الإرهاق إلى عالم السبات، بعيداً عن كوابيس الوحدة وشياطين الغربة.

ر

قبل أن أغرق في سبات الليل، تنحدر بي أفكاري إلى واحة الفكر، أتنقل بمراكبها بين خيال وحقيقة، ثم خيال آخر، حتى أرسو على شاطئ زوجتي. هناك، يقشعر الجسد أمام حاجز البعد الذي فرضته على نفسي، فأبقى ساهداً رغم هجوعي، كذاكرة مطوية لا تجد في فحواها أملاً.

أصبحثُ كثير التأمل في ذاتي، أدقق في قراراتي، أفرز أغلاطي، حتى بات الروتين جزءاً مني. أجهز العشاء، أصلي، أتصفح الصحف والمجلات، أتنقل بين صفحات الفيسبوك واليوتيوب، أتابع الأخبار، أشاهد مباريات كرة القدم، أو أغرق في أفلامٍ لا تنتهي.

في البداية، كنت أتصل بزوجتي كل يوم، لكن مع مرور الزمن، خف الحديث، وبهتت الأشواق. صار الاتصال أسبوعياً، ثم شهرياً، كأن الفراغ بيننا تمدد حتى ابتلع دفء العلاقة. لم تعد هناك نتائج مفرحة تبرر الرحلة، فصار اليوم ثقيلاً، والحياة بلا جديد.

ومع ذلك، قبل النوم، كنت أحرص على استقراء أحوالها، أطمئن على صحتها، وأشغلها بشيء من عبثي وأشواقي التي لا تهدأ.

- الو:
- هلا...
- كيف أحوالكِ، حبيبتي؟
- بخير، والحمد لله. وأنت؟
- وصلت السويد، وأنا بخير، لكن يؤلمني بعدك. اشتقت إليك كثيراً. لو كنت أعلم أن الفراق سيطول، لما هاجرت. أحبك.
- اصبر، بعد كل عسرٍ يسر. الله لا ينسى عبده.

- نعم، لكننا تسرعنا. لم نحسب حساب العقول الجامدة ولا صقيع الثلج. كنا نحمل طيبة القلب، لكن شعوب أوروبا بلا قلوب. أفكر بالعودة كل يوم.
- لا تفعل، فالوطن يشتعل. تفجيرات الكرادة أودت بأكثر من ألف شهيد وجريح. لا استقرار هناك.
- وماذا فعلتِ اليوم؟
- ذهبت للخياط، استلمت عباءتي وقميصاً جديداً، واشتريت لوازم الغسيل.
- أحسنتِ. يجب أن نلهي أنفسنا لنقاوم الفراغ.
- اتصلت بوالدتي وأخواتي، وهي تسلم عليك.
- وعليكم السلام. قبّلي الأولاد عني، فأنا أشتاق إليهم.
- لا تقلق، لن أتركهم. عليّ الآن تحضير دروس الغد وتصحيح الأوراق. نؤجل الحديث للغد.
- حسناً. مع السلامة.
- مع السلامة.

مضت أيامنا على هذا النحو الرتيب. الأحاديث تتشابه، لا تتجاوز الصحة والسلامة. قلت المجاملات، خفت الألفة، وبهتت الحياة. صارت الأخبار محصورة بالكوارث والمآسي، وتبخرت عبارات الغزل خلف معاناة النفس.

شغلتنا الزلازل والفيضانات، وقرأت اليوم عن تصادم قطارين في صعيد مصر، وعن انفجارٍ في مدينة الثورة. الفاعل مجهول، كالعادة. هكذا نتابع أخبار الموت والدمار، فتغدو النفس مثقلة بالغثاثة.

يقيناً، ما كنت لأهاجر لو وجدت فرصة سلام في الوطن. لكن الظرف ألقى بثقله في حجري، والخوف رسم دوامة الشك في ذهني. فتعقدت الأمور، وانزلقتُ في دوامة العقد.

صرنا نطفو على حياة بلا ركائز، كقاربٍ يتأرجح بين أزقة الأفكار البذيئة. حياة مظلمة بلا فجر، دفعتنا للمجازفة دون تخطيط، حتى وجدت نفسي أرقص رقصة الطير المذبوح على بساط الهجر.

11- التياه

بعد رحلة شاقة امتدت عشرة أيام، وصلتُ إلى السويد. كانت رحلة طويلة، بعثرت أفكاري، وأرهقت ذاتي، وأوهنت جسدي. قضيت خلالها وقتًا بين مطارق الطرق، أتأرجح بين التأمل والسهو، العناد والإصرار، التهافت والتجاذب، حتى تلاعبت بي الأفكار.

ما إن وضعت بصمتي في مكتب دائرة الهجرة، حتى مكثت في كامب "صولبكا" مدة سنة ونصف. كان أشبه بسجن مفتوح، معزول، في بناء قديم يعود إلى عام 1917، لكنه عامر وجميل، قادر على مقاومة الزمن لخمسمئة سنة أخرى. كان قد أُعد سابقًا ليكون أقسامًا داخلية وملجأ للدارسات.

تلك الظروف دفعتني للتفكير في المستقبل، ومراجعة وضعي الخاص بطريقة مغايرة لما كنت عليه قبل الهجرة. وجدت نفسي أفتقد الطريق وسط الطريق، أفتقد الأمل في العودة السريعة إلى الوطن، والحلم الذي جئت من أجله، بعدما خارت صلاحية الجواز، وأضحى مريضًا، خجولًا، لا يفي بالغرض. انتهت صلاحيته، ولابد من تجديده... وهكذا بدأت أجدد حياتي تحت وطأة ذلك الظرف، وتحت المحن التي تلبستني.

المعاناة التي حملناها معنا عبر سنين القهر والعذاب النفسي، نتيجة توتر الحروب التي كبّلتنا، لم تنفك عنا حتى ونحن في

ديار الغربة. غبار العناء التصق بالروح والذاكرة، كما التصق بالوطن...

في الغربة، صرت أشبه نفسي بعود ثقاب، تشتعل جوارحي من همسة أو طيف خيال، شوقًا لرؤية حبيبتي والوطن. من فتنة تطفو في الحدق، أغدو أسير هواجسي. من دندنة تطرب أذني بلحن وموال من المقامات العراقية، من لفتة جمعتني بزوجتي... هكذا تنبز العاطفة خيالي كلسعة نحلة. تلك الحالة جردتني من الوجود إلى التيه، من التقوقع والجمود إلى الانصهار والتبخر والضياع، كدخان مخنوق في أجواء الغربة. وفي النهاية، أهجس بذاتي تتكوم كرماد في صحن الغربة، والواقع ذاكرة متخمرة بالشوق...

لم أستطع تلميع ظروفي، فلم أجد من ذلك العود الذي زرعته في مخيلتي سوى دخان شجن ينفذ من صدري كآهات وحسرات، ترمض حشا الفؤاد بنار الجوى.

لهذا، بدأت ألهي نفسي بأخبار الرياضة والمعلومات العامة، أندمج في صفحات التسلية لأجلي عن ذاتي الهم والغم الذي سطا على أفكاري في لحظات الخواء. أحيانًا أستأنس بالكلمات المتقاطعة، أقضي بها شطرًا من الوقت، خاصة في ليالي الشتاء الطويلة في القطب الشمالي، حيث تغيب الشمس في الثانية والنصف ظهرًا، وتشرق قرابة التاسعة صباحًا.

صرت أدفن ذاتي بين أوراق الجرائد وصفحات الإنترنت، أبحث عن أي طارئ يخطر في بالي. وجدت في تلك

المواضيع فسحة جيدة تسليني، تنسيني زوجتي ومعاناة الوطن. أقرأ ما أجده مميزًا، وما فيه إضافة إلى ذهني، خصوصًا صفحة المعلومات العامة، لما فيها من اختصار وثراء. ومن بين ما قرأت:

- مؤسس الديانة البوذية هو "كونغوس"، كنت أظن سابقًا أن بوذا هو المؤسس، فكانت معلومة جديدة أضيفها إلى صندوق المعرفة.
- مؤسس الديانة البهائية هو "بهاء الله"، تأسست في إيران، وتقوم على توحيد الإله ونشر تعاليم مؤسسها الذي ادعى النبوة في القرن التاسع عشر.
- مكتشف ميكروب السل هو "باستور".
- أكثر الدول التي سرقت آثار مصر هي فرنسا، وأكثر الدول التي سرقت آثار العراق هي بريطانيا، أمريكا، ألمانيا، وفرنسا.
- كل الكائنات تحرك فكها السفلي عند الأكل، ما عدا التمساح، الذي يحرك فكه العلوي.
- الزيت والماء يمكن أن يختلطا إذا أضيف إليهما الصابون، لأنه يحلل ذرات الزيت فتختلط بذرات الماء.
- أثبتت الأبحاث أن تناول الجزر بأنواعه يقلل من خطر الإصابة بالسرطان بنسبة تزيد عن 50% إذا تم تناوله بانتظام وبكميات معتدلة.

- الصندوق الأسود في الطائرات هو برتقالي اللون، ليسهل العثور عليه وسط الحطام، وسُمي "أسود" لارتباطه بالكوارث.

وحين أملّ من تلك الأخبار، أشغل فيلمًا لأتسلى به ساعة أو ساعتين، أتجاوز بها أزمة الوحدة، حتى يغلبني النعاس، وأغرق في أتون الوسن والكرى.

بهذه الكيفية، أكون قد شطبت يومًا من جريرة الغربة، يومًا يحمل في طياته آلاف الأسئلة عن حجم الازدراء والتصرم الذي نراوح في وحله، نتيجة سوء تخطيط الحكام، وعبث الاستعمار بخيراتنا. حتى صرنا نقرف النفط القابع تحت الأرض لكثرة عقده والحروب التي تلاحقنا بسببه.

في الهجرة، صرنا نحارب من قبل دائرة الهجرة، نشعر بالذل والهوان، نتيجة الأزمات التي تمر علينا. باتت العقد لا تفسح لنا مجالًا للبحث عن فرصة أمان ورزق يكفلنا ويكف عنا إراقة الفكر والدماء. وكأن دائرة الهجرة ورقة من أوراق الاستعمار، فُرضت علينا لفرض الضغط النفسي على المهاجرين المستلبة إرادتهم وأراضيهم وحقوقهم.

كنت أظن أن الحالة الحرجة تخصني وحدي، لكنني اكتشفت أنها عامة، تدور في خلد كل مهاجر، خصوصًا العزاب والمطلقين، وحتى الأطفال الذين شُرّدوا مع عوائلهم، وافتقدوا حاراتهم وزملاءهم وذكرياتهم. الكل مشرد في داخله، حالهم حال أولياء أمورهم.

وهكـذا، صـار الـبعض يبحـث عـن دفء فـي حضـن الآخـر، يلـوذون ببعضـهم الـبعض، يقتسـمون رغبـاتهم تحـت وطـأة الأزمـات النفسـية. فيمـا الأطفـال يبتكـرون وسـائل تسـلية، كركـوب الـدراجات أو لعـب كـرة القـدم. وقـد شـكّل قصـي وأنـس وخالـد ويوسـف وماجـد فريقًـا رياضـيًا، بينمـا مـارس بعـض الشـباب رياضـة كمـال الأجسـام فـي قاعـة جانبيـة، وآخـرون وجـدوا فـي صـيد السـمك علـى شـواطئ البحيـرة متنفسًـا لأرواحهم.

*****

فـي الكامـب، تعرفـت علـى وجـوه كثيـرة جمعتنـا المصـائر، كـأبو وسـيم، وأبـو عبـدو، و"ترامـب" - شخصـية عبثيـة بخيلـة مـن أهـل حلـب، تشـبه الـرئيس الأمريكـي فـي الشـكل والهيئـة، لـذلك أطلقـت عليـه هـذا اللقـب. كمـا تعرفـت علـى "أبـو مـرق"، الـذي كـان يُـدعى أبـو كـرم، لكـن سـمنته وشـراهته دفعتنـي لتسـميته بهـذا الاسـم. خلـيط مـن الطهـارة والنجاسـة، مـن رجـال ونسـاء، لا يسـعني ذكرهم جميعًا، لكنهم كانوا مرآة لحالة إنسانية مركبة.

فـي صـباح اليـوم التـالي، تبعنـي أبـو وسـيم وأنـا متجـه إلـى المطعـم، وقال لي كلامًا شدّني، فيه من الحكمة ما يستحق التأمل:

- نحـن نعـيش اليـوم فـي عـالم صـار قريـة صـغيرة بفضـل الإنترنـت والكمبيـوتر والموبايـل. وأنـت، كمـا علمـت، بـارع فـي اسـتخدام القلـم والتقنيـة. عليـك أن تسـتغل هـذه الموهبـة. صـوّر نشـاطاتنا، بـثّ كـل مـا يثبـت أصـالتنا

وهويتنا. عبّر عن غاياتنا، عن أهدافنا القريبة والبعيدة. لنوضح للعالم المبادئ التي تربينا عليها، ونثبت أن قلوبنا محبة، وثيابنا ناصعة، عكس ما يصوره الأعداء من تشويه وخداع.

أجبته:

- أنا أفكر بنفس تفكيرك، لكن ليس بمشروع عام، بل بشيء يخصني. الموت في هذا الكامب ليس فقدانًا للروح والجسد، بل هو سكون مطلق، تجريد للإنسان من عقله ومشاعره، كمن يضع عقله في فريزر الخوف والكسل، فلا يحرك ساكنًا. يصبح خارج دائرة الوحدة التي تجمعنا كعرب، كجماد لا يهش ولا ينش.

قال:

- ذلك بالضبط ما أعنيه.

فقلت له:

- دعنا نبدأ المشوار. أنت بتعبيرك ويقينك، وأنا بفني وعملي، وسيتبعنا آخرون.

ردّ:

- وهو كذلك.

الحيـاة لـم تُخلـق عبثًـا لنـركن إلـى زاويـة الخمـول، ننتظـر دنـو الأجـل. فـي هـذه الحيـاة يكمـن سـر الوجـود الإلهـي، علينـا أن ننبشـه ونُظهـره. نحـن نستشـعر ذلـك كـل يـوم، حيـث تتجـدد الـدماء فـي أوصـالنا، فالحيـاة لا تعـرف الاسـتقرار. الكـون كلـه يتحـرك، الشـمس والكواكـب والنجـوم تـدور فـي أفلاكهـا، فـي مجـرات حـول قـرص الفـردوس، بحركـات لولبيـة متموجـة، تعكـس قـدرة الخالق وبصمته.

هـذا دليـل علـى أننـا لا يجـب أن نسـتكين، لا أن نستسـلم. لـذلك، تجمعنـا فـي باحـة المطعـم، نخطـط لعمـل خـاص يمجـد وجودنـا، أمـام أولئـك الطيبـين الـذين اسـتقبلونا براحبـة صـدر. عمـل يرفـع مـن قيمتنـا فـي أعـين مـن لـم نجـد مـنهم سـوى الطيبـة والضـيافة والمحبة الصادقة.

صـار روتـين اللقـاءات يتكـرر، ومسـاعينا تتجـدد، كـل منـا يـؤازر الآخـر فـي دفـع عجلـة الـزمن نحـو هـدف يلـوح فـي الـذهن، ويغيـب عـن البصـر. ذلـك الهـدف صـرتُ أرسـمه علـى الـورق كطـائر شـبح، يختفـي نهـارًا مـن أفـق الظـن، ويظهـر بأشـكال هلاميـة فـي المخيلـة والأحـلام. أتبـع أثـره، كمـا تبعـه أبـو وسـيم، ومعـه الـدكتور، وأبـو عبـدو، وأبـو مـرق، وفريـد، وغيـرهم مـن سـكان الكامب.

وفـي أحـد الصـباحات، وبـين طيـات ذلـك الـروتين الثقيـل، وجـدت أبـو وسـيم جالسًـا وحـده، يتأمـل محيطـه، قابعًـا فـي محطـة أفكـار تمـر عليـه كقـاطرة مارقـة. مشـتت الـذهن، لا يعـرف اسـتقرارًا تحـت العواصـف الهوجـاء التـي تعصـف بـه. يـدور حـول نقطـة

وجـوده، يـتفحص الجـدران، يتأمـل البحيـرة، ينظـر إلـى النافـذة، علّـه يجـد شـيئًا يعينـه علـى جلـده، يكسـر مـرآة الفـراغ التـي تعكـس داخله على ملامح وجهه.

تجـرد مـن المتعـة، بعـدما قيـدت الظـروف حركتـه. وفـي خضـم صـراعه مـع نفسـه، يحـاول أن يجـد بصـمة فـي خيالـه، يتبـع النـور المشع في سماء فكره، ويسأل نفسه:

"مـاذا علـي أن أعمـل؟ كيـف أتحـرك فـي هـذا الجمـود المكلـف؟ كيـف أحـرك شـجرة شـائكة دون أن تـدمى أنـاملي؟ أيـن تكمـن العقدة؟ في الشجرة أم في عقلي؟"

"الشـجرة ثابتـة، هـي الأسـاس. أمـا العقـل فهـو المتطفـل. علـي أن أوجـه عقلـي نحـو الهـدف، أن أسـتوعب الحالـة، وأضـع حلـولًا ناجعة قبل الشروع بالعمل."

ويتابع:

"كيـف أجعـل مـن هـذه البنايـات والشـارع مـزارًا يؤمـه النـاس؟ كيـف أجعـل الموقـع يجـذب الأنظـار؟ ربمـا يحتـاج إلـى مدينـة ألعـاب إلكترونيـة أو مـلاهٍ... مكلفـة، نعـم، لكنهـا تبقـى حاضـرة على طاولة الأمد البعيد."

كـان منشـغلا بتلـك الأفكـار دون أن يصـل لنتيجـة ترضـيه، حينهـا تقدمت منه وسألته بمزاح:...

- ما بك يا أبو وسيم، هل جننت؟

- قريب جدا من أن أجن، هههه، فعلا سأجن أن لم أجد وسيلة تغسل شوائب فكري من هذا الأرق الذي يجتاحني، وهذا الفراغ الكابد على نفسي....

بالله عليك خبرني، كيف أعطي لهذه البقعة صفة القدسية؟ هيا أجيبيني.... كيف؟....

كيف أجعلها تشع بهاء في أعين الناظرين؟ خاصة المنطقة لا تحتاج إلى أبداع فني كبير في رسم ملامحها. فالبحيرة موجودة والغابة موجودة والأشجار الخضرية والنفضيَّه الباسقة مبثوثة، والشارع موصول. المنظر بديع جدا، السكن مهيئ، لا ينقص المكان سوى بصمة سحرية تجذب الناظرين لها، سوى سطوع القمر في ليلة البدر.

- ربما ينقص المنطقة حديقة حيوانات صغيرة، تمثل نموذجا من حيوانات البراري التي تعيش في السويد، والتي يصعب مشاهدتها في الطبيعة. فلو جمعنا نماذجا من تلك الحيوانات البنفسجية والمتوحشة، والتي لها موطن هنا، حتما ستكون واجهة سياحية لطيفة تعنى باهتمام من قبل الناس والدولة. وقد تكون الغابة التي بجانب ملعب الجولف موقعا مناسبا لذلك.
- لكن هذه العملية تحتاج لرعاية دائمة وأبنية تأويها وإدارة متخصصة وعمال وموظفين وخدمات، ناهيك عن توفير الغذاء اليومي المكلف لتلك الحيوانات.

دعنا نفكر بفكرة معقولة. كل شيء موجود وكامل، لكني أشعر بشيء ينقص المكان، شيء ضائع لا

أعرف ما هو، أود أن أبحث عن هذا الشيء الساحر، يضفي على المنطقة هوية التميز، أني ابحث عن البصمة.

تركته يعت بفكره في دنياه، حسبته مريضا، ذهبت لأفطر، ثم أخذت بعضي ونزلت إلى ضفاف البحيرة المتجمدة، وأنا غارق في متاهة من الكدر والهوان، أود أن أجتث نفسي من قيد الوحدة الذي تبعني. كنت أشعر بالدنيا تلتف حولي، تود أن تبلعني في تلك المتاهة، تأنبني بطريقتها الخاصة، أهجس بها صارت تعاقبني على عبثي وسفري دون اصطحاب زوجتي، حتى أني كنت أشعر بنزق الإرهاق في تفكيري، أشعر بأني أبحر وحيدا نحو هدف مجهول في عمق المدى..

تذكرت مرحلة الطفولة، والزملاء، والمدرسة... وكأن المدرسة والمقهى هما من يزرعان الحنين في الفكر، أو يعيدان تشكيل الفكرة داخل قوقعة العقد. فخطرت في بالي قصيدة ابن زيدون، حين قال:

أضحى التنائي بديلاً من تدانينا - وناب عن طيب لقيانا تجافينا
بنتم وبنا فما أبتلت جوانحنا - شوقًا إليكم ولا جفّت مآقينا

كأن الشاعر خاض مأساة تشبه مأساتي، تتطابق أبياته مع حالتي، وكأنه عاش ظرفًا طارئًا كظرفي. صارت كلماته تشرح عقدي، تغور في لب الحدث، تفسر لحظة التنائي، وتسويف ذلك الطيب الذي كنا نسقى منه. كأن الرجاء أُذيب

فـي لجّـة الغربـة كملـح البحـر، فصـار طعمـه مـرًّا علـى طـرف اللسان.

بـتُّ لا أحتمـل التجـافي، لا أجـد للحيـاة ندفـة فـي هـذه التربـة. أضـحى العنـاء وجهًـا طبيعيًـا لهوانـا وأهوائنـا، وصـرنا كـأوراق الشجر بين أشواك الفلاة، أعيش في موسم خريف دائم.

مالـت علينـا الأيـام ميـل القحـط، وسـقتنا مـرّ العلقـم. لـم تجـف أنهـر النـدم قـط، وجوارحنـا تلتـاع شـوقًا لأحبائنـا. لـم تكـف المـدامع عـن حزنهـا وأسـفها. بقـي التجـافي يعـزف لحنـه علـى أوتـار الصـبابة، ويذرئ في الحشا نار الفراق.

فـي نفـق الهجـرة، طفـح شـيء لـم نكـن نتوقعـه، كـان مختفيًـا أو لـم نلتفـت إليـه. لـم نكـن أصـحاب قـرار قـط. لقـد لعبـت أوروبـا لعبـة قـذرة مـع المهـاجرين، وبالـذات العـراقيين والمسـلمين عمومًـا. عملـت علـى تمييـع رغبـة الهجـرة بنـزق الـروتين، وإطالـة مـدة الانتظـار المملـة. حطّمـت العلاقـات الأسـرية، حرّضـت الزوجـة علـى الانفصـال لأتفـه الأسـباب، وشـجّعت المسـلمين علـى تـرك ديانتهم أو الانتماء إلى المسيحية لنيل الإقامة.

هـذا التعامـل شـجّع ضـعاف النفـوس، وكـان التركيـز واضـحًا علـى المسـلمين مـن غيـر العـرب، خصوصًـا القبائـل الآريـة مـن كـرد وفـرس وأفغـان. كمـا أن اختطـاف أطفـال المسـلمين بحجـة "سـوء الرعايـة" تـرك أثـرًا بـالغ الخطـورة فـي نفـوس الوالـدين. بتلـك الطـرق القـذرة تعاملـت معنـا دائـرة الهجـرة السـويدية، فحوّلـت فكرة الهجرة إلى مادة عقيمة منتهية الصلاحية.

صـرنا معلّقـين بـالحلم كالثيـاب المشـرورة علـى حبـل الـزمن، نتلظـى بنـار الشـمس، ونُجلـد بـروتين الريـاح العابثـة، دون حلـول واضـحة فـي الأفـق. حتـى تفتّتـت الفكـرة فـي نفوسـنا وقلوبنـا، كمـا تتفتّـت الأقمشـة تحـت حـرارة الشـمس. تلـك الحالـة كانـت تُصـاغ لنا من الإدارة الأمريكية، بحجج وبدون حجج.

هـذا ميـثم، الـذي جـاء بعربـة الإغـواء يبحـث عـن سـكينة فـي ألمانيـا، رغـم أنـه يحمـل فـي جوفـه كليـة واحـدة نتيجـة تشـوّه خلقـي، إلا أنـه نـال الطـرد والـرفض والإسـفاف. وأنـيس، الـذي جـاء قاصـرًا، لـم يُمـنح فرصـة إتمـام دراسـته الثانويـة ليحقـق حلمـه... وغيرهم كثير على شاكلتهم.

فـي ظـل هـذه الأوضـاع، اهتـزت ثقتنـا بأنفسـنا. توقفـت الحيـاة، توقفـت حركـة الـذهن، تبخـرت الفكـرة مـن رؤوسـنا، وجـفّ معـين الإبـداع. شـعرنا بأننـا مكبّلـون بجمـود وخمـول يمنعنـا مـن تخطـي عقبـة الصـراع بيننـا وبـين الفـراغ الشـاخص أمامنـا. فـراغ تبـع ظلنا وابتلع نوايانا.

تقطّعـت بنـا السـبل، ولـم تعـد لـدينا القـدرة علـى اجتيـاز المفـازة التـي لـم نكـن نحسـب لهـا حسـابًا. لـم أجـد قـارب نجـاة يقلّنـي إلـى الضـفة الأخـرى. كـل محـاولاتي بـاءت بالفشـل، حتـى بـتُّ أشـعر أن ذهنـي ورقـة بيضـاء، خاليـة مـن أي فكـرة أناقشـها مـع زوجتـي، أو إبـداع أتجـاوز بـه روتـين الحيـاة. لا زاويـة آمنـة فيـه، ولا ملاذ.

12- البصمة

من خلال الملاحظة وجدت **أبو وسيم** مشغول البال في أمر ما شلّ ذهنه، حتى أني سألته بعد أن وجدته شبه تائه في قراره لأستبين أحواله:....

- ما بك يا **عماد**؟ لم أنت مضطرب، مشغول البال، هل تحتاج إلى مساعدة؟
- يا وائل في ذهني حاجة أود البت بها، لكني لا استطيع الإمساك بتلابيبها، حاجة لا أعرف ما هي بالضبط؟ لكنها ضرورية وحتمية بالنسبة لي وللمكان، ولا أعرف كيف أبدأ بطرح فكرتها؟...
- هههههههه، لا تعرف ما هي ولا كيف تبدأ بها وطرحها.ووو..كيف ذلك؟ لم أفهم، هي حزورة.
- هي كذلك، ولا أنا فاهم ذاتي، لكن حاجة ما تشغل فكري، أود أن أقدم عملا معنويا ما أضيفه إلى هذه اللوحة الجميلة التي تراها أمامك لتكون المنطقة واجه سياحة للناس.
- أن شاء الله خيرا، وكيف ممكن أن أساعدك؟.
- حين أباشر بالعمل أودك أن تبدأ معي، وتعينني.
- وهو كذلك.

هكذا بدأت الفكرة في ذهن **أبو وسيم**، كوهم يتنفس في ذهنه يود أن يجعل له اطرٍ من الحقيقة، في داخل ذلك الشيء المبهم تقبع فتنة ما غير واضحة المعالم لنا ولكنه يراها بدرا في

سماء ظنه دون أن يتمكن من تحديد ملامحها. مع مرور الأيام صرنا نبحث عن ذلك الغز بين عيون الآخرين، وفي شجون الطبيعة وفي السكون الدائر حولنا وبالفراغ العابث بنا، لنرتقي بذواتنا وبالفكرة إلى حالة التطبيق والألق والاستشراق والشرف والرفعة واليقين.

ولكن قبل ذلك كنت قد سمعته يناقش أبو مرق وترامب والدكتور زاهر وعدد من الموجودين معنا وبالذات السيد بار مسؤول الكامب في ذلك الشأن، يسألهم ماذا ممكن أن نظيف للمنطقة لتتمتع بصفة الجاذبية، لتفتن نظر من يزورها، لتكن مزارا للناس.. لم يسعفوه بشيء، لم يعينوه على ولادة الفكرة، أحدهم طرح عليه فكرة إنشاء كازينو سياحية وآخر تبليط الشارع القديم وملهى، أفكارا غير مجدية، ميتة، لا تهز الذهن ولا تشد النظر.

وفي أحدى الصباحات وجدته قد أستفاق من نومه على هاجس حسه المرهف المليء بالرقة والوعي، والمبطن بمشاعر جياشة تجاه دينه وقومه وناسه. وجدت عنده حس شفاف، يتراءى للجميع بنعومة ملمسه الحريري، وكأنه وشح ذات حسه ببريق من سندس واستبرق. صباح ملهم بسحر الغابة المطلة على البحيرة، ليستلهم وحيه تجاه بلده والبلد الذي هاجر إليه.

في الحقيقة الكل كان قد هاجر نتيجة أزمة ما ألمت به، فهو واحد من هؤلاء الذين شردوا من بلده، فلم يكن من المتسولين، ولا العابثين أو المساكين ولا من عابري السبيل، ولا من

المغرر بهم، ولا من الذين أغواهم الطمع فجاشوا يزحفون في الطرق على بطونهم.... كان إنسانا بسيطا جدا، يُملِئ قلبه شغاف الحب والعمل والسلام، من الذين أُلِفَت قلوبهم بالحق والأيمان والسؤدد.

هكذا وجدته عصاميا وفي ذاته تتقد شرارة المكابرة، وكأنه لم يأتِ إلا لأثبات الهوية، بذلك كنت أشاركه في الرأي والعمل والتحضير وطول البال في فترة تجمعنا وتلاقينا، لأتناسى سجن الفراغ الذي سجنت نفسي به بإرادتي، كنت أجد مؤازرة من الطيف المحيط بي، الذين اصبحوا بفعل الظرف كشعلة واحدة لمواجهة ذلك التنين المحيط بنا من الفراغ الذي يقهرنا، والذي تعدى على مكوننا وكينونتنا وكياننا ومكانتنا، فأودع امكاناتنا تحت قدره دون إرادة منا، ذلك هو الزمن المريع.

كنت أشعر بينهم بشيء من القيد والوحدة والتفكير السلبي وأنا أزحف خلف حاجز التنائي بعيدا عن وجه حبيبتي الملائكي؛ حتى أني كنت أحسد البعض لأنه لم يحتمل ترك زوجته خلفه، أصر على جلبها معه رغم صعوبة الرحلة ومشاقها وإفلاس جيبه، جازف بحياته وحياة أطفاله وزوجته بعبور البحر.

أما أنا؛ كنت قد سلكت دروب التخفي، مانِحا نفسي فرصة من الطمع وعدم الدراية؛ خوفا من المجهول القابع في سرائرنا، خوفا من الزمن والفشل والحيرة في بلاد الغربة. حاولت أتشبث بضفتي النهر في آن واحد، وددت أن أتمسك بفرصتين سانحتين أمامي، وفي نهاية المطاف وجدت ذاتي لا تصلح أن تكن جسرا بين ضفتين، بل وجدتها لوحة يدحرج بها تيار

الفراغ الجارف لوهدة الضياع، فضاعت الفرص دون أن أنتبه على موطئ القدم، دون أن أمسك بأذناب الفرص...

كان **أبو وسيم** قد استفاق هاجسه الخفي حين بات يطرق جوارحه بربتٍ ناعم كربت الودق، دكت مشاعره بندى الود ورهافَ الحس، فاهتزت مشاعره، تحرك وعيه، غدى التناغم في ذهنه فطري بين ثنايا الصمت وأفق الحلم المراد إدراكه. راغت الرغبة الجياشة بفيض عزمه، أصر على رفد تلك المشاعر بيقين من دفئ الشمس، تلك التي أبت أن تترك قلقة قبل أن تستكين أحلامه على مواقد العمل وتنفيذ الفكرة..

شعرتُ به وكأنه ود قتل الفراغ المحيط به، وأن كانت زوجته ترتع بحضنه كحمامة، إلا أنه كان يشعر بشيء من الضياع والتيه بقرارة نفسه وهو بعيد عن أفق الوطن، فالوطن هو الحاضن الأكبر، مثلما يجد في حضن حبيبته وطن تنسيه همه وهم الوطن الأكبر، لذا كان يود أثبات تلك الوطنية وأن كان قد افتقد تحنانه وصبره.

حينها كنت أصارع الزمن وأحاول أن أجلي صدأ الفراغ من على الذهن، وجدت ذاتي شبه مأسورة بتلك القيود التي فرضتها الوحدة والغربة. لذا أحببت أن أتجرد من تلك القيود برفقة أبو وسيم، عسى أن أجلي الوهم الذي تراكم على ذهني والذي أرهقني وهاجمني كوشق يود افتراس ذاتي، بتُ أشاركه الحوار والنية، وعسى أن نعثر على الفكرة قبل أن تشتتنا الاقدار.

وجدته يتساءل مع نفسه ويجيب ذاته، وهو يدور في دوامة من الشك والصراع، كناعور يدور في فراغ مطلق، ذلك الذي عانيت منه منذ لحظة فراق زوجتي بحثا عن الاستقرار، فقال لي وهو يود فتح آفاق النقاش:...

- يا ترى؛ لِمَ لا نثبت لهؤلاء الأنجاس من الغزاة بأننا أكثر منهم عمقا وفهما وتاريخا وأفضل إنسانية وحضارة؟. هؤلاء الذين شوهوا صورنا كمسلمين وكعرب بين الدول بشيء من قذارة الإعلام؟ من أجل تبرير غزوهم لأوطاننا وسرقتهم خيراتنا، ليجعلوا دولنا سوقا مفتوحة لمنتجاتهم.
لِمَ لا نعكس الصور الحقيقية التي تمثلنا؟ بحيث كلٌ منا يعمل من موقعه وحسب إمكاناته البسيطة، علينا أن لا نستسلم لغاياتهم، أن نقاوم حيث نكون بالممكن والمستطاع..... أنت تعمل من جانبك وذاك وذاك، إلى أن نبني في مخيلة من استضافونا فكرة تمحي ما تركه المستعمر في أذهانهم من عبث ودجانة وكذب.

هكذا شغل ذهنه وشغلنا معه بحيث صرنا نتبع ذلك المسار أملا أن نرد على عبث الغاصب والمحتل والجاني وهم يكيلون لنا العذاب من خلال تدمير أوطاننا وشل قدراتنا... كنت أحيانا أسال نفسي واقول في الوقت الذي اجيبه:...

- تفكير سليم.. من الذي أوصلنا إلى هذا المعترك من الارهاق النفسي والجسدي؟ من الذي أوصلنا إلى نقطة اللاعوده، والذي جعلني أفترق عن زوجتي وأغوص

فـي ذلـك السـدم مـن التيـه، أمـلا فـي إيجـاد صـيغة حيـاة أفضل من التي كنا عليها.
من؟ ...
أليس المستعمر الحقير؟ أليس هو الذي من زرع بيننا الفتن والعقد والطائفية والعنصرية والقومية البذيئة من أجل أضعافنا وسرقة خيراتنا؟
نعم هو ولا أحد غيره...

لذا كنت أشد على يد أبو وسيم في تفكيره، اوافق تطلعاته على أخذ المبادرة في ردم جدار اليأس الذي يفصل بين تطلعاتنا وظرفنا الموارب، ذلك الذي يحيط بنا كروتين ووهم وفرق مهاجرة لا تجد في يدها سوى التأمل ومساعدة الغير، على الأقل تكون في أيدينا وجهة نظر إيجابية في مواجهة ومحاربة صيغ الفراغ المرعبة المحيطة بنا.

صرت أحثه وأحث نفسي وغيري على بدء الفكرة في تكوين جمعية محبة بيننا، جمعية تشرع في إزالة العقد وحل المشاكل، على أن توحد رأينا وتزجنا في بودقة عمل مشتركة، ليكون لنا صدى وشأن ونحن كعصبة في الغربة، وإلا ما جدوى هجرتنا ونحن مشتتين.

لذا قلت له: ....

- نحن هنا كمهاجرين وكأغلبية في الكامب، يمكننا مواجهة أعدائنا من موقعنا بعمل يظهر حقيقة معدننا. يمكننا تغيير نظرة المجتمع إلينا بتقديم لوحة فنية

جديرة بأفكارنا، عمل جدي يرفع من شأننا بشكل معنوي كأن يكون عمل رمزي أو مادي، يعبر عن حقيقة مشاعرنا ويكشف للآخرين حقيقة معدننا الطيب...

رد علي قائلا:...

- ذلك ما أبحث عنه، الأعداء كانوا قد تصرفوا معنا بخبث ومكر واضح، لقد استخدموا ضدنا شتى الإعْلام الكاذب، جعلونا إرهابيين، دعنا نبين الحقيقة المعاكسة لما يفتنون به ويرمون إليه. تلك هي مآربهم، ولتكن لنا مآربنا. وعلينا دمغهم وأزاحه هالات الغموض عن عيون الغير، التي ما عادت تمطر علينا سوى سموم حقد وكراهية.
- هذه هي الحقيقة، دعنا نعمل على حرق صور الإعْلامِ الزائف من موقعنا، دعنا نزيح تأثيرهم عن المجتمعات ولو بالممكن، حيث دائما ما يكون للحق سطوة على الباطل فيزهقه.
- نعم صورنا مهزوزة في أعين الأخرين لقوة إعْلامِ الأعداء أمام ضعف تحركاتنا! هم يتحركون على نطاق دول ومنظمات، لها أجندات وعملاء يؤازر بعضهم البعض. ونحن نتحرك في أزقة الأحلام الضيقة كأفراد منفصلين بعضنا عن البعض، تكاد المقارنة لا تقاس ولا تقرأ، باهتة، ضعيفة، لكنها حية في أعينهم وفي ضمائرنا.

- لا تيأس يا أبو وسيم، للحجر شأن وفعل في صنع دارات الأمواج المتعاقبة إذا ما سقط في جوف بحيرة راكدة، وأكيد للبحيرة ردة فعلٍ اتجاه الحجر الساقط فتثير الفضول في أعين الناظرين إليها، وذلك حين تزج بكتل الأمواجٍ الراقصة بين أعين المغرمين بها، كدلالة على رفضها لتلك العبثية الماجنة التي أثرت على سكونها.
- هكذا سيكون عملنا في صولبكا كرمية الحجر في عيون الأعداء، أحسنت.

كنت أدرك جيدا عملنا مجرد عبث في وسط ذلك الضياع الذي يلفنا، ولكني كنت أحسبه كرمية الحجر وسط البحيرة، لمجرد أن أشعر بالتغيير، أن أجد ذلك التغيير يعبث بشكل الروتين الذي يكبلنا.. حيث أني دائما ما كنت أحسد المحيطين بي على الألفة التي هم عليها مع عوائلهم، مهما صعب الأمر فأنهم في نهاية اليوم يأوون لأحضان أحبتهم في الليل.

من يشغل باله بلعبة الحب، من يهنأ بجنس وشبق، لن يأخذه الخيال في متاهات دروب الفراغ طويلا، سيجد في جعبته طرقا أخرى سهلة تمتعه، تنسيه الهم والغم، يتخطى حاجز أزماته، ينام قريرة العين في كنف الأمان، كل سيجد في حضن زوجته وطن، يستشعر بدفئه وتحنانه.

لذا كنت أعتقد بأن لسر الحجر تتحرك ذوائب الروح في جسد البحيرة، فتخرج عن طور السكون لطور الديناميكية، حين إذ يختلف منظرها عما سبق لمن يشاهدها عن كثب، تختلف

زاويــة الرؤيــا مــن محيطهــا الــدائري، تختلــف أبعــاد الفِكَــرْ للنــاظرين إليهــا، كــلٍ يراهــا مــن وجهــة نظــره وحســب موقعــه وثقافته وتفسير عقله.

ســتكون لهــا جــذوة ومقبوليــة عنــد الــبعض، وســتكون عبثيــة بــلا معنــى عنــد آخــرين، ممــن لــم تجــد فــي جيــوبهم الخاويــة نظــرة إيجابيــة وفكــر مبــدع يشــي بــالغرض. هــؤلاء الــذين يصــطفون علــى رصــيف الفســاد والبغــي والحســد دون إرادة، مــن الفئــة المريضة التي لا تبالي بجرح الوطن ولا بسقف الفراغ.

هكــذا هــي الحيــاة نجــدها متقلبــة، تتجــدد فيهــا صــيغ الألفــة حســب ســعينا وموقعنــا مــن نقطــة البعــث التــي نســعى إليهــا، أو التــي تســعى هــي إلينــا. تلــك التــي تشــذبنا إليهــا، للولــوج فــي زحمــة أفكارهــا ومــا ورائها من أسرار والق نبتغيه.

قبــل أن أتــرك زوجتــي كانــت الامــور مســتتبة فــي الــذهن، إلا ذلــك العبــث الــذي كــان يتبعنــا ويشــعرنا بعــدم الاســتقرار. الحالــة جدليــة، اهتــزت مكعبــات المــخ مــع اهتــزاز عمــود الــوطن، فلــم تأخــذ أماكنهــا الصــحيحة.. ولكــن بعــد الهجــرة تغيــرت وانقلبــت الأمــور رأســا علــى عقــب، بحيــث منــذ لحظــة الــوداع تحولــت الحالــة مــن تأمــل لحالــة نــدم بــرتم غوغــائي فــي داخلــي محبوكــة بالشــوق، تنــاثرت المكعبــات وتشــتت الــذهن بشــكل عشــوائي، ظهــرت للأيــام مخالــب تخــدش ذاكرتــي وتــدمي مخيلتــي، تنتــف شــملة الــزمن، باتت تتبع الشكيمة بحنق، تغز الحياة بألم وإسفاف.

قبل الاحتلال والهجرة كانت الحياة ثأدة، مكتنزة، تحتفظ بصرة أمان، تحولت فيما بعد لـ عجفة، هزيلة، مريضة، ليس بها روح ولا متعة.... ذلك ما يدعني أن أواصل زوجتي باستمرار، كان آخر اتصال جرى بيننا بشكل روتيني، نتيجة قلقنا على بعضنا قبل اسبوع، أهجس بها كنبتة جفت عروقها، فأصابها النزق، أحاول أن أسقيها قليلا من المياه النقية كي لا تجف الحياة وتموت.

كنت أحاول أن أصبرها وأصبر نفسي بذات الكيفية، أحيانا تأتي المبادرة من قبلها وأحيانا من قبلي، وحسب درجة تأثير ذلك الفراق اللعين على هيج الأشواق، صرنا نعاني في ظل جفاء الفراغ. حتى أني ما عدت أهجس بطعم الحياة للمرارة التي سقمت السنتنا، حيث كلما طال الوقت؛ جف حشف العاطفة على الشفاه بقدر حبة وتبخر أثره عن الفؤاد بقدر نتفة.

هاتفتها وأنا في شوق ولهفة لسماع صوتها ومعرفة آخر اخبارها، حتى كسرت بتلك المهاتفة مرآة الصبر التي أصابها الغواش، أضحت واجهتها كظهرها أمام عيني وحجم بؤسي. حيث قلت لحبيبتي في لحظة صمت غسلت بها الذهن من غبرة الفراغ المشعشع الملتصق فيه:..

ألو ...

- هلا.
- كيف الحال يا غالية.

- بخير، أدفع بالأيام وأحاول أن أنسى الظرف بشيء من العبث.
- لقد وصل بي الشوق لغاية الجنون بك، أهجس بك ترافقيني، يكاد صوتك يهمس في أذني، صورتك لا تفارق مخيلتي، أجدها في وجه كل أنثى تقابلني في الطرق، لا أدري ماذا أفعل حيال ذلك؟ حتى أني أود كسر طوق الفراق بشيء من الجنون والعبث، أود العودة ولكن الجواز قد نفد، صار حاجزا بيننا وعاجزا على تلبية متطلباتنا، انتهت مدته، كما أن الهدف الذي سعيت خلفه علق في عنق دائرة الهجرة، أضحى منسيًا فوق الرفوف، لا أدري كم ستطول مدة الفراق!
- ما يفيض في القلب أكبر من الجنون نفسه، ولكن أجد في قراءة القرآن سعة في نفسي، ينسني قرف الحالة التي نحن عليها. أصبر وأن الله مع الصابرين.
- والنعم بالله، حافظي على نفسك فأني بحاجة لك، قبلي الأولاد نيابة عني..
- لا تهتم وأنت لا تشغل بالك كثيرا الزمن كفيل بحل المعضلات.
- لا أدري انا أرى الغموض ركب كل شيء في حياتي، حتى النظر بت أشعر به قد تغيرت ماهيته بحيث صرت أرى الجمال قبح، حسب القياسات أني أعيش في جنينة، والحقيقة أشعر بأني في سجن مكبل بقيود ليس لها وجود. صغرت الدنيا في نظري بل صارت بلا معنى وبلا قدر.

- أمـا أنـا أرى فرجـا يلـوح فـي الأفـق، لا تفكـر بنـا نحـن بخيـر، وعليـك الصـبر والتجلـد كـي تتغلـب علـى الـزمن والفـراغ الـذي يلـوي ذراعـك، اقـرأ القـرآن واسـتعين بالرحمن ولا تغالي الأمور.
- أحـاول ذلـك، علـى كـل أحببـت الاطمئنـان عليـك، مـع السلامة
- مع السلامة

بسـبب الأنترنـت صـارت أمـور الحيـاة أسـهل مـن قبـل بكثيـر، بحيـث صـار الشـخص سـهل عليـه أن يتعـرف علـى اخبـار العـالم باللحظـة، كمـا صـارت الاتصـالات بالأحبـة متاحـة وأكثـر تسـهيلا. علـى ضـوء ذلـك صـارت الحيـاة أخـف عقـدا ممـا كانـت عليـه، بحيـث ممكـن أن أرى حبيبتـي علـى شاشـة الموبايـل دون أن الـتمس ثناياهـا، صـارت الوشـائج أكثـر إثـارة وحـرارة وإغـراء عن قبل، غدت تفيض بالأشواق هيجانا.

كمـا كنـت خـلال عـودتي لسـريري أقلـب الصـحف والمجـلات عبـر النـت، أبحـث عـن الخبـر الغريـب والشـجي لأنسـى شـيئا مـن الهمـوم العالقـة بفكـري. تصـفحت جريـدة البيـان الإماراتيـة والحيـاة السـعودية والـزمن اللندنيـة، تلـك الجرائـد كانـت تجلبهـا لنـا دائـرة الهجـرة لتخفـف عنـا عنـاء الوحـدة والـروتين البطـيء فـي عملهـا. كمـا كنـت أقلـب صـفحات البـرامج التواصـل الاجتمـاعي اليوتيـوب والفيسـبوك والانسـتكرام متبعـا أخبـار الـوطن وأخبـار الكـرة والطرافـة، متبعـا أخبـار المنتخـب العراقـي ونـادي الـزوراء، علـى تلـك الشـاكلة أصـبح للـروتين صـورة أخـرى فـي

الحياة، ولكن روتينٍ أخف وطأة مما كان عليه شاغلا فكري به.

ما كان يؤلمني حقا هو أخبار الوطن، تراخت قرارات الدولة تحت ظرف الوقائع الهمجية لتشعب أصحاب القرار، والتي باتت قرارتها تزحف خارج حدود المنطق مع ازدياد تفجيرات السيارات المفخخة واطلاقات المدافع على الأحياء. تلك القوى أدخلت الوطن في نفق مظلم دون أن تعين المناطق المنكوبة على إعادة حيويتها، تلك التي هجرها أصحابها مجبورين تحت ظل تعسف ماحق أهلك الوجود وأنهك البدن. ما يؤلمني هو الوضع الذي يزداد تدهورا من بعد احتلال العراق عام 2003، أي مضت خمسة عشرة سنة من الفوضى وعدم الاستقرار.

كل صار يجر الحبل من طرفه حتى ضاع رأس الخيط، تاه الشعب في دوامة العنف في ظل مصالح شخصية وحزبية وأجندات خارجية. تلك التي صارت تفرض قروءها وملابساتها ووجودها هنا وهناك دون رادع؛ حتى وصلت الأمور درجة إخلاء الوطن من الوطنية، تحت بند العقد المركبة، حالة يصعب فك رموزها وشرح أزماتها، أضحى الوطن يطوف فوق بركة أزمات دون علاج حقيقي، ازمة كهرباء وزراعة وصناعة وعمل.

الفراشة

نتيجة الحرية المطلقة المتاحة للمرأة في بلاد الغرب، كن انفصلن عن أزواجهن معظم النسوة المتزوجات من الجالية السورية للعقد المتجذرة في طبيعة العلاقة المقرونة بسيطرة الرجل. بمجرد أن تنفسنّ الصعداء تطلقنَّ، أطلقن لجناحيهنَّ العنان. كانت قد انفصلت حميدة عن زوجها الأرعن لبخله وقسوته وسطحية تفكيره السلطوي، فلم يرتقي لألق أنوثتها، لم يتحسس دفء مشاعرها، جعلها ندبة في فكره كلما حكها جرح كرامتها، وكانه قد تفضل عليها في زواجه منها. لقد تجاوز عليها بالضرب لأتفه الأسباب، كتأخرها في تحضير فطوره، أو إذا ما أحدثت قرقعة ما في البيت خلال نومه، أو في حالة تأخرها عن تنفيذ أوامره... الخ من ذلك القبيل التافه. لقد وضع حاجزا بينه وبينها منذ أول يوم زواجه منها. لذا كانت تهابه ولا تحترمه، تخشاه ولا تقدره؛ حتى أنه جردها من شخصيتها وأناقتها، بل استولى على لطافتها وسعادتها وطاقتها وبطاقة مصروفها الشهري التي تعينها بها دائرة الهجرة. لذلك لم تجد مناص من التجرد والتحرر بحيث وجدت ذاتها بأنه لا يجمعها به سوى طفلها الوليد قصي.

الهم محى فتنة شبابها العشرين، تهجس به لصغ بجلدها ووجهها كوشم، بحيث زوجها الارعن جعل مفاتنها نفاضة لقطوف سجائره، بذا خبت شعل المفاتن من الجسد تماما. بهت الألق بروحها، أنساها بسمتها وسماتها وفرفرتها، حتى شغبت

ملامحها لون الهم والغم، فسلت ذاتها في تربية أبنها الذي لم يجد عطفة من لدن والده سوى هنَّات معدودة غير مجدية.

كما انفصلت رباب عن زوجها الخنيث الذي كان يبدو أشبه بأنثى قابع معها تحت سقف واحد، تلك التي لم تعر له أهمية تذكر في عجرفة سلوكها وانحدارها وجبروتها ونياتها ومشاويرها واختلاطها بالشباب، باتت في ميولها تغرم بهذا وذاك وهي على ذمة زوجها. لم تكن له سلطة عليها ليحد من انحرافها وسلوكها، فهي مهرة لم تجد من يشكمها ويجدل ضفيرتها، بل كانت تهجس بأنها مجبرة على تحمل خنثه تحت سقف الزواج.... لم يجرؤ على مواجهتا ولم يستطع إيقاف تحديها له، كأنها تمسك عليه مسكة أخلاقية. تهجس بأن كعب أنوثتها أعلى بكثير من خف رجولته. ذلك ما حفزها على الإسراع بطلب الطلاق منه بمجرد حصولها على الإقامة، على الرغم من أنها أم لثلاثة أطفال، بحثت عن ذاتها في قائمة رجل يشكمها.

في الحقيقة الحرية المطلقة للنساء في أوربا ومشروعية المساواة بين الرجل والمرأة؛ هي التي أعطت للنسوة جرأة التحدي ومواجهة أزواجهن واتخاذ القرار ضدهم، بل كانت المنظمات تشجعهن على الطلاق.

كنت أجد في عين رباب سلطان فتنة تهز كل رجل، فتنة تفوق حدة الفتنة في ثنايا الجسد والروح، لها عين الصقر لحدته وعين المها للسعتها، كانت جريئة جدا، حادة؛ لسعة، حذقة، فيهن شراسة غريبة، تهجس بها لبوة مضطرمة حين تشنف

الرجل بنظراتها، لا أحد يستطيع مقاومة حدة تلك النظرات. بتلك العيون كانت تجرح خواطر الشباب، تجلدهم، تجردهم من ثقتهم بأنفسهم، تأسر خواطرهم بسلطانها. نظرات حادة فيها شراسة وميوعة، ترفقها بابتسامة شفيفة فيها لجاجة وإغواء ودجانة وشبق وعطش أنثى، تجعل من ينتبه لها يستسلم لنزواتها.

كانت تبحث عن فتنتها في عيون الغير، وعن أنوثتها في جرأتها، بل كانت تبحث عن جرأة توافق جرأتها، جرأة تذلل الحياء بين الطرفين، تخفي في داخلها شراسة لبوة ولطافة حمامة عطشة للغريزة الجنسية، كانت مغامِرة، عاشقة، مجنونة تمرح بين الشباب كغزالة.

تبعت رباب خديجة بعد أن وجدت ذاتها أسيرة عُقد فرضها عليها زوجها الذي يبدو هو الآخر كثور أرعن يسير إلى جانبها، دون أن تجد منه شراكة حقيقية في المقارنة والحس والين. لم تجد شراكة حقيقية تجبرها على البقاء على ذمته، هجست به طين لازب في مقعدها دون إحساس ومشاعر توافق فتنتها التي تفيق فتنة نسوة الكامب، يبدو ظرف سوريا المادي هو الذي أجبرهن على القبول بزيجات شكلية من هذا النوع الطفيلي لتخطي عجز عنوستهن.

أهجس به لا يعرف من الحياة سوى الأكل والنوم، دون أن يفاكهها ويداعبها، دون أن يبرع في تفعيل عواطفها وتهييج أنوثتها وتنعيم شبقها. كانت تبدو أكثر النساء جاذبية شكلا وأنوثة إلى جانب سهى، تهجس بالأنوثة متقدة في وجهها

وجسدها كالجمرة، تحتاج لمن يهف عليها ويبرق لهبها وليرتقي احساسها ويلين ثناياها، لتضيء في سماء وجد الزوج كمصباح تُلهَبْ أجواء العشرة.

كانت ترتع في عالم غير عالمه، تسرح وتمرح وتلعب وتجامل وترقص وتشارك هذا وذلك بعيدا عن أجوائه، كان يتأملها عن بعد دون أن يستطيع شكمها ومنعها. مشاعره مهلهلة مبعثرة كبقع الوجه تمحق محاسنها ولا تواكب ارهاصات شبابها..

لفيض سحر عينيها العسليتين كنت أعشقها، لخفة دمها وصفاء لون بشرتها وجميل بياضها كنت أتبعها، لجاذبيتها السليطة، لابتسامتها الساحرة، همت بها، تبعت ظلها وأضواء براءتها بشغف وشوق لقرب ملامحها من ملامح زوجتي. أضحت ذاتي تخور بأفكاري في أزقة هواها وسوح مفاتنها، وبالذات حين أكون في خلوتي، أهجس بها نسخة كاربونية من زوجتي، وبالذات في خفة الدم والشعوذة الصبيانية التي تفتعلها. ذكرتني بزوجتي للتشابه الكبير بين عطفة الأنف وطول القد وشياكة اللبس.

دائما ما كانت ترتدي قميص نصف كم ذا تلابيب دون أزرار، كاشفة مباهج الصدر وجمال تكور الثدي وصفاء البشرة، وكأنها تود أن تبهج الناظر بسحر أنوثتها. كانت إمرأة وذيلة، صبوحة، قسيمة، تحتاج لفارس شهم يشكمها ويطوي مشاعرها ومفاتنها تحت ظله.

كان زوجها يكبرها بأكثر من خمسة عشرة سنة، لا يعرف كيف يثيرها ويقدح مفاتن انوثتها، لذلك انحدرت بغييها، فتبعت زميلاتها، فضلت الانفصال والعيش في سكينة بعيدا عن ضوضاء صوته الأجش.

فيما سهى هي الأخرى نَحَتْ منحى زميلاتها، ارتدت ثوب العدوى فانحرفت في مركبها جانبا، لترمي زوجها لكواسر الالسن في وسط أمواج البحر، تكاد الحلات تتشابه بسبب فرط الحرية اللاتي استمتعن بها في السويد من جهة، والدعم المادي والمعنوي الذي كنّ يحصلنَّ عليه من دائرة الهجرة أسوة بالرجال، إضافة لصفة البخل التي يشترك بها أزواجهن ونغمة التسلط التي مارسوه عليهنَّ في سوريا وخارجها..

أي أن الفكرة في مشاكل الارتباط والانفصال هي بالأساس مادية واجتماعية أكثر من أن تكون عاطفية وجنسية ودينية، تلك الأسر لم تجتمع على أساس الحب فيما بينها أنما وجدت ذواتها فرص لتتخطى محطات العنوسة فركبت المركب. بينما انفصلن لاختلاف الثقافات بين فكر الأزواج والواقع، مع أن كل اللاتي تطلقن كنَّ أمهات لعدد من الأطفال، ذلك يوضح بأنهن كنَّ قد تحملنَّ قسرا مراهنات أزواجهن على مضض.

كأنّهنَ أصبن بعدوى الصرع؛ لأنهنَّ وجدن في الحرية أنفسهن وفي المادة فرصة الانطلاق لفضاء الاستقلالية وفك الارتباط عن أزواجهن، الذين جاءوا بفكر زجل من واقع زجل، دون أن يفكروا بإنسانية الزوجة التي من حقها أن ترتع بالحياة التي لا تتكرر..

مـا شـغل فكـري فـي تجمـع تلـك النسـوة، الفتنـة المختمـرة فـي ملامـح وجـه سـهى والرقـة والأناقـة والجاذبيـة الملتاعـة بهـا وجـه وبشـرة خديجـة، كنـت أشـبهنَّ بفاكهـة النسـوة، كنـت أنعـت سـهى بالفراشـة لخفـة دمهـا وحـلاوة لسـانها ورشـاقة طولهـا السـليط، كاملـة الأوصـاف، تتمتـع بعذوبـة ذائبـة فـي طراوتهـا وحركـات الجسـد، لبقـة اللسـان، رزينـة الطلـة، عكـس زوجهـا الممـراج، الذي لا يتحكم بأمور البيت، ربما لا يتحكم بأمر نفسه.

كنـت حـين أراهـا أسـتمتع بفتنتهـا، لمـا فيهـا مـن جاذبيـة وجـرأة وحضـور، إضـافة للفتنـة المغمـوزة فـي ملامـح الوجـه والمغـروزة فـي القـوام والاناقـة. شـفيفة، حـرة، مجنـة، فيهـا مواصـفات زوجتـي بالتمـام والكمـال، وأن لـم تتطـابق معهـا فـي تفاصـيل ملامـح الوجـه والجسـد؛ إلا أنهـا لا تقـل عنهـا رقـة وجمـالا وجاذبيـة. يتطـابقن بـالألق والحسـن والشـعوذة والطرافـة والحضـور والجـرأة، وحـب العمـل الجمـاعي ودعـم الآراء والحـث علـى التعـاون، بالـذات فيمـا خـص طقـوس الشـعائر الدينيـة كمسـلمين فـي رمضـان والأعيـاد، بـدعم الفطـور الجمـاعي والصـلاة المشـتركة.. الـخ مـن ميـزات وصـفات حلـوة وجـدتها فيهـا أحببتنـي بهـا.. لهـا أنـف منمـق ذو جاذبيـة لافتـة، كرهافـة أنـف زوجتـي، لمـا فيـه مـن حسـن وكبريـاء، مـن وجهـة نظـري أرى لشـكل الأنـف سـلطان بـارز علـى ملامـح الوجـه، لـذا التمسـت جاذبيتها.

حـين تجلـس أمـامي أسـتهام بتفاصـيل الوجـه والجسـد، أغيـر عليهـا، أنغمـس برقـة مفاتنهـا، أشـرع برسـم القبـل علـى جمـر

الشفاه حتى تتقد في الخيال في واحة ظني، أبحر في شواطئ العينين والجسد بقصص من الخرافة والشعوذة لأكون البطل فيها وتكون البطلة أمامي، حتى أنغمس بمغامرة في التهام اللذة المجنة الكامنة بها. أخلق من اللحظة المارقة سعادة آنية تجمعني بها، أصحبها معي في ميادين أرقي وسهادي، أمضي بها لغياهب الجب، أسرج مفاتنها بخيالي، اجعلها وسادة احلامي.

لانشغالي وولعي بها؛ صرت لا أشعر بالراحة إلا وهي تضيء مرافئ صمتي بنور شمعتها، لأغرق باستمناءة أغسل بها ضعفي وهواني، أشكي لها غربتي ووحدتي وعنائي. دائما ما أحاول الاقتراب منها، أجالسها، أحاورها، أتحدث معها، أحيانا أنحدر لمغازلتها بشيء من الطرافة، أجعلها تنحرف بفكرها صوب الحرشة والفحش، أجعلها تبتهج بنفسها وألقها. في أحدى المرات قلت لها:...

- أنت جميلة يا سهى، أهجس بك توئم زوجتي، فهي تشبهك بخفة دمك ورقتك وطولك وجمالك وصفاتك. لها أنف جميل كأنفك يضيء وجهها.

كانت تبتسم وتفرح بذلك، تشكرني على إطرائي، ما كان يمنعني من تجاوز حدود اللياقة؛ علاقتي الطيبة بزوجها، حيث هي جارتي في الكامب الذي أجلس به.

- أود أن أرى الابتسامة على وجهك، فهيَّ جميلة وجذابة، تريح أعصابي...

تلتفت إليَّ بخجل وفي عينها فيض سحر يغشي ابتسامتها الشفافة، قالت وعلامات الخجل شطت في وجنتيها بشيء من الريبة كشهب دنى لاحساسي:....

- عن جد تتكلم، هذا هو رأيك أم...؟
- هل عندك شك، أنت أجمل إمرأة تذكرني بزوجتي..
- أنت تتغزل بي.
- أنه مجرد اعتراف، ليتني استطيع تجاوز حدودي..
- صرت أرتاب من نظراتك، فيها نية خطيرة.
- حتى وهي بريئة؟
- حتى وهي بريئة، لأني أرى خلف براءتك قطة شرسة وحشية ترعبني.
- هههههههههه، استمعي لما أقول(وددت ان أغير الموضوع): ستكون لنا رحلة جماعية للغابة، وأنا أطلب منك أن تطبخي أكلة تخصنا كعرب بعيدا عن الذي سيجلبونه لنا من سندويشات، أودك أن تطبخي الدولمة (الملفوف) كما تسموها، علي أن أجلب لك ما تطلبينه من مواد...ما رأيك؟
- طلبك أوامر مستجابة، سأجعلها مشتركة بيني وبينك، سأشتري المطلوب بنفسي، وعليك دفع نصف المبلغ، لألا تدخل الريبة في قلبي وقلب زوجي، فهو أشبه بالثور دون مشاعر.
- وهو كذلك، ولن أنسى معروفك. ولكن أن كان هو كما تصفيه، لم تزوجته؟...

- أنهـا قصـة طويلـة وقسـمة وظـرف أعـور، أرجـو أن لا تذكرني بها.

بعـد تلـك الجلسـة القصـيرة تركتهـا تـداعب طفلتهـا حنـين، كـان زوجهـا قـد قـدم مـن المطعـم، يشـعر بنزلـة بـرد. عنـدها لسـعتني ذبابـة الغيـرة علـى زوجتـي، تـرى لـو كانـت معـي فـي الغربـة هـل هـي الأخـرى سـتطلب الطـلاق اسـوة بالنسـاء السـوريات؟ ذلـك مـا حز في نفسي لعشقي الكبير لها.

فـي القريـة المجـاورة كانـت تقطـن امـرأة نشـطة، جميلـة فـي الشـكل والطبـاع، رشـيقة القـوام، مرحـة. تلـك المـرأة لشـغفها بنـا ومحبتهـا لنـا، دعمتنـا بعملهـا الإنسـاني وبكـل الوسـائل. دائمـا مـا كانـت تحـاول أن تجمـع المهـاجرين حـول فكـرة معينـة، بهـا ترسـم البهجـة علـى وجوهنـا. أحبهـا الجميـع لصـفة الوداعـة واللطافـة والمسؤولية التـي تحملهـا. حفـزتْ الجمـع علـى ممارسـة الرياضـة الماراثونيـة والمشـاركة بأنشـطة ثقافيـة وترفيهيـة وتعليميـة، لكسـر الـروتين ومقاومـة الأجـواء البـاردة التـي تصـل لدرجـة حـرارة (20 ـ) تحـت الصـفر، الثلـوج تغمـر الأرض بارتفـاع قـدم وتزيد....

تلـك المـرأة كانـت تصـرف جـل وقتهـا فـي اسـعادنا، عـدت لنـا أنشـطة أسـبوعية، اشـركت معهـا زوجهـا وأبنهـا وأبنتهـا الجميلـة لونـا، وأحيانـا ينطـوي تحـت لوائهـا أخوهـا. هـذه المـرأة والتـي أسـمها (شاشـتين) تعمـل مدرسـة فـي مدينـة جنيسـتا القريبـة منـا، وهي عضوة برلمانية.

جمعتنا ذات مساء في صالة البهو، للاحتفال بتجمعنا والتشاور معنا بمنهاج عملها الترفيهي والرياضي والتعليمي، كانت قد جلبت لنا هدايا بسيطة من علب الحلويات والكيك والمشروبات الغازية وما شابه ذلك، لتفتح أمامنا باب الاندماج بالمجتمع السويدي.

كما اطرقت آذاننا بصخب الموسيقى مع تلك الفرقة التي جلبتها معها، رافق العزف رقص عربي وسويدي وارتيري، كانت قد أبدعت سهى برقصها إلى جانب ماسة وخديجة، فشكلا نموذجا مبهرا في إطلالتهن، سرحنا بمفاتنهن، لجاذبية خديجة واناقة ماسة ورقة سهى..

اتفقت السيدة شاشتين معنا على تفعيل ركضة المارثون في صباح كل سبت، ندور بها حول محيط الغابة التي تقع مقابل ملعب الجولف القريبة عنا، كما حددت لنا يوما لجولة التزحلق على الجليد في ملعب الجولف، إضافة لرحلات شهرية ترفيهية إلى الغابة نتناول فيها الغداء المشترك تحت ظلال الاشجار الصنوبرية.

أستمتعنا بمنهجها وبذلك اليوم، جلدنا الفراغ الذي كان يجلدنا، ما أن نتمكن منه في ساعات النهار؛ حتى يحكم قبضته علينا بعد فترة الغروب، يقحمنا في غيه وإذعانه، يجلدنا ببهتانه وقرفه وجلفه وظلاله ووجله، يقتص منا بِغلْ سلطانه وبلادته. ينغص حياتنا بمجرد أن نركن ذواتنا إلى باحة الصمت والسكون حين نأوي إلى الفراش. دائما ما نبتهج بزيارة السيدة

شاشـتين، أشـعر وجودهـا بمثابـة العصـا التـي تلـين جلـد الكسـل وغشاء يزح عنا ظلال الغربة والوحدة..

التحدي

بعد أسبوع من لقائي به، وفي فترة الفطور الصباحي وقف أبو وسيم يتأمل أبو عبدو رفيق دربه الطويل، عسى أن يعينه على ولادة الفكرة التي يبحث عنها، دخل معه في نقاش لم يفض لشيء، أنما زرع في داخله تحدٍ صريحٍ لمواصلة سعيه. حيث دار الحديث بينهما كالآتي:....

- يا ترى؛ يا أبو عبدو، هل لك فكرة ما تنقذني بها من الصراع الدائر في ذهني، والذي بات يوما بعد يوم يهزمني؟
- ما بك يا أبو وسيم!.. هل جننت؟ أنت أفضلنا حالا.
- هههههه، وائل يقول لي جننت وأنت تقول لي جننت، وهل معقول أني جننت ولا أدري بحالي؟ هههههه، الحقيقة أني أعاني من ولادة فكرة، لكنها باتت عصية عليَّ.
- هههههههه، راجع مستشفى الولادة.
- لا تكن سخيفا، أنا جاد معك، فكر معي، أبحث عن البصمة الضائعة، أريد أن أصل إليها دون أن تعينني قدراتي..
- ألمْ تقل أعاني من ولادة؟ هههههه. هل لك أن تفهمني أنت ذكر أم أنثى.هههههه..أنا لم أفهم عليك...ألم تجد غيري تتفلسف عليه ؟
- ركز معي يا أخي... أود أن أجعل من هذا الموقع وجهة سياحية، ما رأيك؟

- بسيطة جدا.. لا يوجد أبسط منها.
- هيا يا عبقري أرفدني بما يجول في خاطرك، قل لي بماذا تفكر يا مجنون؟
- ممكن تحوير شكل البحيرة الطولي لشكل دائري.. ثم نأتي بتلة مخروطية نثبتها في وسطها.
- لا تكن لتوتا، فكر معي في حل يسعفني، أنا لست فاضي لترهاتك يا رجل ولا توتن أفكارك بأفكار غيرك.
- أنت مجنون؟ المنطقة سياحية من أصلها، ماذا تريد أن تفعل بها... هل أنت إله لتقول للطبيعة كن فيكون؟ بذلك تغير من شكلها كما تريد.
- أنت الذي مخك ترللي، لا تستوعب حالة الانفجار الدائرة في مخي، هههههههه.... فكرك محدود، لا تود أن تخرج عن إطار نطاقك الضيق، دعك متقوقع في سجنك...
- أتريد أن تجننني؟
- يا حبيبي! يا رفيق دربي! أصغي إليَّ.. أنا أود أن أضع لهذه اللوحة الجميلة التي تراها بعينك إطارا، بحيث أجعلها مميزة عن الأماكن الأخرى.
- إذا أعمل فيها مطاراً! آن ذاك تجبر الركاب على النزول بها، أن يمروا عليها مرور الكرام، ليروا البحيرة وهذه الأشجار الباسقة من صفصاف وصنوبر وأثل وزيزفون وقرم والتي تغطي بقع واسعة من الأرض. علما هنا الأنسان نادرا ما يرى الشمس حتى لو كانت مشرقة، فأنها لن تستطيع أن تتخلل كثافة الأشجار الباسقة بكامل خيوطها.

- والله فكرة، بدأ مخك يشتغل.... لكن بدل المطار أفكر بأن أنزل القمر من جوف السماء، أثبته بخيوط في قمم هذه الأشجار الباسقة، ليبقى يطل علينا من فوق وعلى هذه المنطقة الوسطية بالذات، بحيث يكون ليلها نهارٌ دائم...ها.. ما رايك؟ يكون القمر معلقا فوق رؤوسنا بشكل دائم.
- الم أقل لك أنت مجنون!
- أنا عند وعدي، حين ابدأ بالعمل عليك أن لا تتقاعس، عليك أن تبدأ معي، حينها نرى من هو المجنون أنا أم أنت؟

بعد هذا النقاش الذي استمعت له، ولجنا إلى المطعم والذي كنا قد جزعنا من ذلك الأكل المكرر الذي لا يواكب رغباتنا، أهجس بمعدتي أصبحت مزرعة بطاطا ومكرونة، لتكرارها علينا، كنا نأكلها مجبرين، فالمكرونة التي كنت أأكلها في السنة مرة، صارت من الوجبات رئيسية في الطبق.

بقي في خلده يفكر دون هوادة، تراءى للغير بوضوح تام، خاصة لأم وسيم! التي بات فكرها يشذ بعيدا، تنشغل به أكثر من انشغاله بنفسه وبالفكرة الدائرة في رأسه.... هي أقرب الناس له، تعرفه جيدا، تعرف طباعه ومدى تفكيره وهوسه وجنونه..... تعرف إذا ما شغل ذاته بأمر ما، فلن يتركه إلا أن يصل مبتغاه...

إذا هنالك هم ما يشغل باله، أرهق فكره، ترى ما هو ذلك الشيء؟ ما هو السر الحقيقي وراء صمته وسرحانه الطويل؟

علمـا أنهـا لماحـة، فاتنـة، جذابـة، صـارت تشـك بـه وتهـادن نفسها:..

- يا ترى؛ أيمكن أن يكون قد جنَّ وأغرم بغيري؟..

صار قلقها يشغلها كثيرا.. باتت تكلم نفسها بجنون..

- لالا مستحيل، لـن يفعلهـا، أنـا واثقـة مـن شـغفه بـي.. لكـن يجـب أن أحـرص وأتأكـد، يجـب أن أعـرف بمـاذا يفكـر وماذا يدور في خلده.

وهـي جالسـة علـى دكـة أمـام واجهـة المطعـم وعينيهـا منصـبة علـى واجهـة البحيـرة برفقـة رفيقتهـا منـال، إمـرأة حسـناء بدينـة، راودتهـا فكـرة شـيطانية للحظـة، فكـرة نقلتهـا لعلـم الخيـال والعبـث، دلقتهـا فـي ذلـك الفـراغ الـذي أعـاني منـه، هفـت بهـا الـريح لعـالم الشـك كريشـة الحمـام، كـش وجههـا، غـدت أشـبه بـالورس الاصـفر يختنـق بوجههـا الابتسـام، تـود أن تكسـر قفـل مخه لتتأكد بِمَ ينشغل بعيدا عنها.

فلم تصبر على جلدها حتى هاجمته بعاطفتها قائلة له:....

- ما بك يا حبيبي بم أنت مشغول؟
- ألا تـرين مـا نحـن عليـه؟... لا بـد مـن عمـل أبـين بـه حقيقـة مـن نحـن، الأعـلام الخـارجي كبيـر وقـوي، تحركـه أيـادي خفيـة معاديـة لنـا، يـا تـرى كيـف نواجـهُ هـذا المـد الكاسـر أن لم نقدم عملا يعضدنا؟

- ولـم تشـغل بالـك؟...أأنـت المعنـي أم هـؤلاء الـدواعش والمليشيات الوقحة العابثة بأرواح الأبرياء.
- العمـل الإرهـابي الـذي وقـع فـي فرنسـا قبـل أيـام، أسـتغله الأعـداء فألصـقوه بنـا وبـديننا الحنيـف، علـى الـرغم مـن أن شـعبنا هنـاك يتعـرض لإبـادة جماعيـة، بلادنـا تنتهـك وتغتصـب بأيـاديهم القـذرة، هـم مـن أوصـلونا لهنـا، هـم أول مـن بـادر بـدعم تلـك العصـابات وأثبتـت أقـدامهم... ألـم تـدعم فرنسـا عصـابات الإرهـاب بالسـلاح لتحـرق سـوريا ولبنـان وليبيـا، وقبلهـا دمـرت تـونس والجزائـر؟ الـم يزرعـوا الكيـان الصـهيون فـي قلـب الـوطن ليبتـزوا الشـعوب العربيـة؟ مـن أعطـاهم الحـق مـن أن يسـتبيحوا دمـاء الفلسـطينيين متـى شـاءوا؟ أوربـا أحرقـت اليهـود، والفلسـطينيين والعـرب يـدفعوا الـثمن. مـن أحتـل العـراق وشـرد شـعبه وقـوض قدراتـه؟ مـن لـه مصـلحة فـي دعـم هـذه العصـابات والميليشـيات التـي تجـوب بلـداننا كـدبيب النمـل بالأسـلحة والعتـاد والمـال؟ مـن شـردنا مـن ديارنا وأوصلنا إلى هنا؟....

ألا تـرين لـم يكـن لنـا دخـل فـي كـل تلـك المصـائب، ألا يجـب أن نـرد علـى الكـلاب المسـعورة التـي تلاحقنـا بعمـل يحفـظ كرامتنا.

- مـاذا بيـدك أن تفعـل؟.... أنـت بنفسـك تقـول هجرونـا، شردونا، قتلونا... فما باليد من حيلة.
- حتـى لـو شـردنا وتهجرنـا... هنـاك مـا لـن يسـتطيعوا السـيطرة عليـه أبـدا، نحـن نمتلـك قلوبنـا وعقولنـا، قلوبنـا مليئـة بالمحبـة والإخـلاص والصـدق لكافـة البشـر، وعقولنـا حالـة خارجـة

عـن نطـاق السـيطرة، هـذا هـو السـلاح الأقـوى البـاقي فـي أيادينـا، أقـوى مـن كـل مـا يصـنعون ويبـدعون... نحـن نفكـر عكـس مـا هـم يفكـرون، نمضـي فـي تيـار معـاكس لتيـارهم تمامـا. تفكيرنـا نـابع مـن سـمة الـدين الحنيـف، ومـن عمـق حضـاراتنا، مـن الأخـلاق الحسـنة والقـيم الأصـيلة التـي تشربنا بها، يعجزوا أن يدركوا شواطئها.

- إلا تتعظ وتنهي ما يأزم العشرة بيني وبينك؟
- لا يـا حبيبتـي أنـت مكانـك فـي الـروح والقلـب. عليـك أن تآزرين. تشدي عضدي، دعيني أصل لغايتي..
- سأقف إلى جانبك حين تبدأ، أظن العمل مجرد خيال فقط.
- وأنـا أظـن كـذلك، المهـم أنـا أفكـر، أريـد أن أتـرك بـين هـؤلاء ذكـرى، ليقولـوا هاهنـا كـانوا يقطنـون مـن الصـقنا بهـم تهـم الارهـاب جزافـا... بـالله؛ أيوجـد إرهـاب أكثـر مـن إرهـابهم لنا؟

كنـت قـد جلبـت كاسـين مـن الشـاي لـه ولزوجتـه وجلسـت بجـانبهم أسـتمع لنقاشـهم علـى هـوادة، وقلـت لـه وانـا فـي سـري أطـرب علـى إصـراره علـى خـوض تجربـة غريبـة، حيـث المشـاهير لـن يكونـوا مشـاهيرا فـي الأعمـال العاديـة التـي ممكـن أن ينجزهـا الغير، أنما في عمل مميز يفوق طاقة العقل. لذا قلت له:....

- أيـن وصـلت يـا أبـو وسـيم؟ هـل أتقـدت شـعلة الجنـون فـي ذهنك؟
- تعال وأستمع لما أفكر به...

أخذ ورقة وقلم من أبنته لانا التي كانت تقف إلى جانبه وهي تحاول مذاكرة دروسها في اللغة السويدية. صار يرسم ويخطط شكل المنطقة على الورق، ربما الورقة تعينه على إيجاد شكل البصمة التي يبحث عنها، ربما تقرب إليه الفكرة أكثر مما هي على الأرض، لصغر حجمها وسعة الأرض.

- أنظر يا وائل، أنظري يا أم وسيم وأنتِ يا دب (مشيرا إلى أخته منال) شاركونا الراي؛ هنا ملعب الكولف، هنا بناية اوستربو، اسكولان، فاستربو، رسبشن أو المطعم، نوريبو، اوليمبن. هذه خريطة المنطقة التي نقطن بها..
- واضحة المعالم لنا ما بها؟
- إلا ترين يا أم وسيم بأن شكل المنطقة شبه بيضوية، شبه دائرة القطع الناقص، البحيرة تحدها من الجنوب، والغابات من أطرافها الأخرى.
- والشارع واصل لوسط الأبنية.
- أحسنت. هذا يعني المنطقة بحاجة لعلامة مضيئة وبارزة في الوسط، لتشع نورها على بقية الأمكنة.

أشرت له بأن المنطقة المحصورة تعتبر صغيرة الحجم لا تفي بالحجة التي يفكر بها، فقلت له:....

- المنطقة التي تقصدها تبدو ضيقة، لا تصلح لمشروع تجاري كبير، كمركز ألعاب الكترونية أو كازينو، كما أن الأرض ليست مستوية.

- لاالالا... أنـا لا أفكـر بهـذه الطريقـة، أنـا أود أن تـرك بصـمة هنا قبل الرحيل والمغادرة.

ظـل ذلـك الهـاجس يشـغل بالـه، كيـف السـبيل للوصـول إلـى البصـمة، وكيـف سـيكون شـكلها ولونهـا؟ تـرى هـل سأصـل إليهـا، أم سـأبقى قـابع فـي جحـر الأحـلام؟ أهـي نجمـة فـي جـوف السـماء أم هي أقرب من حبل الوريد؟.

صار يكلم نفسه ويجيب:....

- لـو سـعى الأنسـان فـلا شـيء يقـف أمـام سـعيه؛ إذا لا مجـال للمسـتحيل، طالمـا أنـا أفكـر إذا أنـا موجـود، وطالمـا أنـا موجـود إذا سأصـل للهـدف، نحـن نعمـل بجـد ونفكـر بإمعـان، إذا لابـد مـن كسـر قيـد الهـوان حسـب القاعـدة التـي نراها.

وهـو فـي خضـم تفكيـره الغيـر منقطـع؛ باغتتـه رغـدة أبنـت صـديقه أبو عبدو بسؤال عفوي بريء، فهي طفلة في ربيعها العاشر.

- عمـو أبـو وسـيم، عمـو. كيـف يكـون **العَلَـمُ نـورٌ** ؟ أنـا لـم أفهـم العبارة، ممكن توضح لي ذلك؟

- **العَلَـمُ نـور**..... لا لا يـا حلـوة، لـيس **العَلَـمُ نـورٌ**، إنمـا **العِلْـمُ نورٌ**....

العَلَـمُ... العَلـم، صـار يـردد تلـك الكلمـة فـي ذهنـه.... إذا هـو، هـو العَلَمُ... نعم وجدتها.. العلمُ هو البصمة التي أبحث عنها.

قفز من مكانه محتضنا رغدة ليقبلها من جبينها، ثم أحتضن أم وسيم والفرح يملأ شغاف قلبه، صار يصرخ بحضنها:...

- وجدتها... وجدتها... لقد حُلتْ العقدة التي أبحث عنها، استلهمتها من عابرة أخطأت بلفظها طفلة. نعم -- كل شيء مسخر لنا في هذه الطبيعة، الحيوان والنبات والشمس والقمر والأرض والسماء.. كل شيء مسخر لخدمة البشر. ألم يتعلم قابيل دفن أخوه هابيل من طائر الغراب؟ إذا علينا أن نستلهم أفكارنا من المحيط الذي نعيش فيه، من تجارب الآخرين حتى لو كانت بسيطة.

بعد أن أستلهم الفكرة صار يفكر بطريقة تنفيذ مشروع العَلَمْ، ود أشراك جميع من يعيش معه في الكامب بتنفيذ أكبر علم في السويد، كي تكون للبصمة طابع جماعي، يخص المهاجرين.

وهو في تلك النشوة وجد خديجة وزوجها الدو وربيع ومحمد وترامب وصلاح من الجالية السورية جالسين في شرفة المطعم المطلة على البحيرة، أقترب منهم وقال لهم :....

- لنا عمل مشترك سأطلعكم على تفاصيله، أودكم أن تأزروني وتشاركوني جميعا به...
- حتى النساء ... (قالت خديجة).
- حتى النساء، أنه عمل جبار، سنترك هنا بصمة قبل أن نغادرها.
- كلنا معك.... (ردد الجمع بذلك).

- سنعمل أكبر عَلَمْ في السويد!!!!!

*****

في مساء اليوم التالي الأثنين 30/ 11/ 2015 أجتمع لفيف من المهاجرين بفسحة في باحة الجلوس المُشْرِفَة على واجهة البحيرة من أمام المطعم، كان من ضمن المتواجدين أبو وسيم إلى جانب، كل من لورانس والدكتور عبد العزيز وأبو عبدو وأحد السويديين وأبو مرق وترامب ومزعل وربيع وغيرهم... بالإضافة لتواجدي إلى جانبهم.

كنا نتجاذب الحديث ونحتسي الشاي.. وقد طرح عليهم أبو وسيم فكرة أنشاء أكبر علم في السويد، قائلا لهم:....

- يا جماعة؛ أني بحاجة لآرائكم، عندي فكرة أود تطبيقها، وهي أنشاء أكبر علم في السويد.. هل لكم أن تساعدونني بـ كيفية تنفيذ هذا العمل؟ ماهي المواد الممكن استخدامها؟ وما تكاليف إنشائه؟.. ما رأيك يا دكتور؟ ماذا تقول في الفكرة؟..
- فكرة لطيفة جداً، عليك تحديد المكان والتفكير بحجم العَلَمْ كم سيكون عرضه وطوله، وكم يأخذ من المواد المطلوبة لمعرفة التكلفة...ترى؛ هل ينفع القماش؟..
- أنا فكرت بأن نجعله على الأرض من الحجر، نرتبه على مساحة مائتي متر مربع، ثم نصبغ البقعة بلوني

العلـــم الأزرق والأصـــفر؟... مـــاذا تقـــول يـــا ترامـــب. هههههههـــه، كـــان المفـــروض أن أأخـــذ رأيـــك أولا. هههههههههههه.

- هههههـــه. أنـــا رأي الحجـــر صـــعب تجميعـــه فـــي هـــذه المنطقـة، ثـم أنـه يلـم الغبـرة، وإذا مـا وددت أن تجعلـه مـن الحصـى أو الحجـر يجـب عليـك أن تصـفف الحجـر علـى أرض مبلطـــة، لأن الحشـــائش ســـتنمو بوســـطها وتتـــداخل بينهـا فتخفـي معـالم العلـم مـع مـرور الـزمن. دعنـا نـرى رأي السـويدي، هـم أصـحاب البلـد الأصـليين حتمـا لهـم فكرة أجدر من أفكارنا....
- السـويدي: أنـا أظـن لـو جعلنـاه مـن صـفائح البلاسـتك الملونـة يكـون أجـدى، يكـون أقـل تكلفـة وأكثـر حيويـة، وممكـن أن تغسـل بالمـاء ويتجـدد رونقهـا، ثـم لا تخترقهـا الحشائش. ماذا تقول يا لورانس؟
- والله فكـرة لطيفـة، مـع ذلـك أظـن أن البلاسـتك لا ينفـع، لأن الطقـس هنـا متقلـب، ففـي اليـوم الواحـد نشـاهد أربعـة فصـول. العواصـف، الأمطـار، الثلـوج، مـع مـرور الـزمن تتـأثر بالتعريـة، فيبهـت لونهـا ويخـف رونقهـا، إضـافة لاسـتقطابها للغبـرة بشـكل سـريع، حيـث تصـبح مـع الـزمن أشـبه بـالغراء الـذي لا يمكـن جليـه.. مـا رأيـك يـا أبـو مرق؟
- فكـرة الحجـر هـي الأفضـل، أو نجعلهـا مـن قـوارير المشـــروبات الغازيـــة بعـــد أن نملئهـــا بالميـــاه الملونـــة الأزرق والأصفر، أكيد أبو عبدو يوافقنِ رأيي....

- لالا أكيد لا، هههههه، أوافقه.... أولا الحصى تجمع الأوساخ، والقوارير ممكن أن تتكسر، ألا ترى فصل الخريف وكمية تساقط أوراق الشجر التي لا يمكن السيطرة عليها. أنا أفضل رسمه على جدران أحدى البنايات الكبيرة.
- لورانس :ما رأيكم لو نشرك السيدة رندا، وهي مهندسة شاطرة، لربما نجد عندها حل أفضل من الذي نفكر به. ها هيَّ قادمة.

رندا سيدة مرموقة بعقد الخامس من العمر، قادمة من ثكنتها على وقع خطى الصمت تمشي الهوينا، أكاد لا أهجس بوقع حفيف قدميها على الأرض، لهدوئها واستقامة قدها المياس، أهجس بها تمشي الهوينا على عزف ترنيمة القلب، دائما ما تراها منفردة بذهابها وإيابها لموقع بناية اوستربوا التي تقطن بها.

أستأذنها لورانس لتنظم للمجموعة، وقد لبت النداء مسرورة. باشرها أبو وسيم بطلبه..

- يا أم أحمد! أنا أفكر في عمل كبير يشرف أهل الكامب، أود أن أعمل أكبر علم في السويد، محتار في نوع المادة الممكن استخدامها، لم نتوصل إلى فكرة ترضينا. كونك لك خبرة في مجال عملك، ماهي المادة المفضلة لذلك؟ هل ممكن أن ترفدينا بفكرة ما؟

- أظـن أن السـويد مشـهورة بالغابـات، فمسـألة الخشـب متـوفر ورخـيص جـدا قياسـا للمـواد الأخـرى، أضـف إلـى لـذلك بأنـه لا يتأثر بالمناخ.
- يسـلم ثمـك، فكـرة صـائبة، الله عليـك كيـف غابـت عنـا تلـك الفكـرة، الآن الفكـرة اكتملـت، أدركنـا الغايـة المنشـودة، فعـلا الخشب هو أفضل مادة مقاومة وأرخصها ثمنا.

كـان قـد ازلـف الوقـت وأزفـت فتـرة العشـاء، كـلٍ منـا أنـزوى فـي غرفتـه نتيجـة الصـقيع المسـتمر، لقصـر نهـار شـهر تشـرين وكـانون الثـاني قياسـا لطـول ليلـه، الشـمس التـي نـادرا مـا نراهـا تغيـب بعـد الثالثـة مسـاء. ذاك ذهـب لحُضـنِ زوجتـه وذاك ذهـب لحَضنْ مخدته...

المقارنـة صـعبة جـدا أن تجـد مـن يكشـط هـم اليـوم وعنـاءه بقبلـة دافئـة، ومـن يـدفنها فـي مخدتـه ككـوابيس وأحـلام مزعجـة. هـذا هـو الفـرق بـين العـازب والمتـزوج فـي الغربـة. بـت أهجـس عربـة الحلم ما عادت تتقدم بنا بسبب عجرفة دائرة الهجرة.

مـع أنـي تمنيـت أن تكـون زوجتـي معـي فـي تلـك السـاعة، لكنـي شـكرت ربـي بـأن زوجتـي ليسـت كـذوات التفكيـر الهـش إذا مـا قارنتهـا بهـن. صـرت أكـره النسـاء إلـى مـا ذهبن إليـه مـن انحـراف فكـري وسـلوك واهـن، ألـوم ربـاب علـى سـخف سـلوكها وانحرافهـا، الـوم خديجـة علـى جرأتهـا وخوائهـا، وحميـدة علـى ضعفها وهوانها، وسهى على صلافتها وغرورها.

" وَقُلْ لِلْمُؤْمِنَاتِ يَغْضُضْنَ مِنْ أَبْصَارِهِنَّ وَيَحْفَظْنَ فُرُوجَهُنَّ وَلا يُبْدِينَ زِينَتَهُنَّ إِلَّا مَا ظَهَرَ مِنْهَا [النور:31]" صدق الله العظيم.

لابد ان تكون قدسية العلاقة بين الزوج والزوجة لها مكانة فوق كل شيء، وإلا لا تعتبر العلاقة توافقية مطلقا، وقد وصى الله بذلك..

{يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لا تَتَّبِعُوا خُطُوَاتِ الشَّيْطَانِ وَمَنْ يَتَّبِعْ خُطُوَاتِ الشَّيْطَانِ فَإِنَّهُ يَأْمُرُ بِالْفَحْشَاءِ وَالْمُنْكَرِ } صدق الله العظيم

لابد هناك من درجة توافق، ليتربى الأولاد على قائمة الاحترام والتوافق. فالإفراط في تخطي الزوج حدود العلاقة الزوجية يؤدي إلى تدمير هيكل الأسرة. فعلى كل امرأة أن تجعل من ذاتها آية في نظر الرجل، حيث المرء ينظر إلى فتنة المرأة بنصف عين وإلى فكرها وثقافتها ودرايتها بالنصف الثانية. وعلى الرجل أن يحترم الزوجة ومتطلباتها..

في الحقيقة الرجل كالحشرة، ما أن يشاهد زهرة حتى يفتتن بها، كل النساء يجذبن الرجل، ولكن قلة من النساء اللاتي ينظر لهنَّ بعين عفيفة، فلا صداقة بين الرجل والمرأة قط إلا ما ندر.

ذلك ما يجعلني أن أخاطب حبيبتي بين فترة وأخرى لأطيب خاطرها وتطيب خواطري الملتاعة، نجبر خواطر البعض،

نصبرها، وأن كانت تحتمس فوق نار الجمر. لذلك صرت أرفع الهاتف وأنا أعلم قد كلّ الصبر وشتتَ الفكر، صرنا نقرف الحياة وهي منكبة على رصيف الطريق:...

- الو....
- هلا بالغالي. كيف الحال..
- الحمد لله الصحة جيدة ولكن الفكر مشغول فيك، تائه، أدور في دوامة الفراغ، حيث لا استقرار في مجال الفكر ولا راحة تسكن الجسد إطلاقا.
- أصبر أن الله مع الصابرين، اليوم ذهبت لمعرض السيارات مع صديقتي ناديا، وقد أعجبتني عجلة رف 4 تويوتا جميلة، قمت باستبدال عجلتي بها من باب التغيير، لأنها صارت ترتع بالعطلات وتكثر من توقفاتها في الطرق. لقد دفعت فوق سيارتي خمسة آلاف دولار واستبدلتها بعجلة جديدة، أنها موديل السنة الماضية.
- ممتاز مبروك عليك ذلك، حسنا فعلت، لأن عجلتك تجاوزت الـ 160 الف كيلومتر، لذا استهلك محركها من الداخل.
- ثم ذهبنا لشاطئ البحر، جلسنا في مقهى على الشاطئ، ثم رجعنا لأبوظبي، وبذلك كسرنا روتين الحياة الذي يطوق اعناقنا. نحن في إجازة مفتوحة بسبب احتفالات رأس السنة الميلادية، سيبدأ الدوام في **1\5** من السنة الجديدة. أي نحن في إجازة لمدة خمسة عشرة يوم.
- أها....ممتاز.. وهل مدرستك الجديدة اقرب أم أبعد عما كانت.

- لا أنهـا أبعـد بحـدود عشـرة كيلـومترات، أنهـا علـى جهـة بنـي ياس.
- بـالتوفيق يـا حبيبتـي وأنـي مجـرد أن أسـمع صـوتك أشـعر براحـة، حـافظي علـى صـحتك ولا تسـيرِ بسـرعة فـي الشـوارع الخارجيـة، دائمـا مـا تتخلـل الطـرق المفاجئـات. الله يحفظـك من كل مكروه.
- شـكرا لـك وأنـت أعتنـي بنفسـك، وأنـا أدعـو الله أن نجتمـع قريبا.
- أن شاء الله... مع السلامة
- مع السلامة

شاشتين

في صباح يوم السبت الثاني من كانون الأول، وأثناء فطورنا الصباحي، زارتنا السيدة شاشتين تحمل كرتونة من الأحذية الرياضية المستعملة، جاءت بها لتوزعها على من يرغب في المشاركة معها في ركضة الماراثون حول الغابة. وجدتُ في هذه المبادرة فرصة لتغيير روتين الحياة، ولو بشكل بسيط، يكفل لنا كسر رتابة الوقت وغطرسة البرد، ويبدد ذلك الفراغ اللعين الذي نهش أفكارنا وعلس أجسادنا، حتى باتت شناطته لا تنفك عن رقابنا.

رغم قسوة الجو، جاءت السيدة شاشتين بحيوية تكسر بها عدسة البرد، وقد بلغت درجة الحرارة في ذلك اليوم سالب 15 مئوية. على الإنسان أن يتحرك إذا ما أصيب بخيبة أمل أو كسل أو ملل؛ عليه أن يوقظ ذاته بالتغيير، ويطحن الحالة المعيقة بالفرص المتاحة، ليبدل الصبغة الدارجة بأخرى تتقبلها النفس وتنسجم مع نمط الحياة، فتضفي على سيرته جاذبية، ولو كانت أقل مما يبتغي. عليه أن يغير مكانه وسلوكه وتفكيره، ولو بانحراف بسيط عن مساره المعتاد، ليحتفظ بزهو مكانته ويجدد نمط حياته، على الأقل في داخله المريض، ليطرد عن ذاته أعراض الكسل والقلق والمرض.

مع التغيير، يشعر الإنسان بنكهة جديدة، بطعم الحيوية، ويجد ذاته مزودة ببوصلة أمل ونشاط يديم صبره ويقوّي مقاومته

للمعضلات غير المتوقعة، ويمنحه راحة تعينه على احتمال مرارة الصبر.

حين أقول "نقتل الوقت"، أعني ذلك البعبع الكامن خلف المدى، ذلك الفراغ المجحف الذي يدور في عقولنا، ويسعى لتجريدنا من أهوائنا وهويتنا وصفاتنا. كمهاجر، بقيت ملفاتي عالقة على رفوف دائرة الهجرة، تستقطب غبار الأيام والسنين دون اهتمام، تنتظر من يحنّ عليها وينتشلها من النسيان. هؤلاء عديمو الإنسانية، جردونا من وجودنا وأحلامنا ونظرتنا للغد، وكأنهم لم يدرسوا علم الناسوت ولا آمنوا بقدر اللاهوت، فتحجرت قلوبهم قبل أفكارهم، وصاروا يهمشون رغباتنا ويرمون ملفاتنا في سلة المهملات الأبدية.

تجمعنا قرابة عشرين شخصًا، بين شاب وشابة، وبدأنا نتبع السيدة شاشتين وابنها وابنتها البتول في هرولة خفيفة حول الغابة الوسطية، التي تقدر مساحتها بمساحة ملعب كرة القدم. كان علينا أن ندور حول المكان من ثلاث إلى خمس دورات، رغم أن أرض الغابة كانت مغطاة بجليد الثلج، غير مستوية، تتخللها الحفر والنقر والأحجار، إضافة إلى عروق الأشجار والأغصان المتكسرة التي تعترض الطريق. وكان خطر الانزلاق والسقوط كبيرًا، خاصة في المسافة المحاذية للبحيرة المتجمدة، التي تعد أخطر المناطق، إذ يمتد المسار الطيني لأكثر من مئة متر، ويرتفع عن سطح البحيرة بثلاثة أمتار، مما يزيد من اضطراب القلب أثناء تجاوزها.

كان صراع التحدي دائرًا بين الإرادة وقسوة الطقس، بين دفق الرغبة ومجهود البدن، وبين لسعة البرد التي تأزز خلايا الجلد بنسائم صباحية سليطة، تحت سماء صافية وشمس خجولة تبتسم في الأفق البعيد.

بدأت أتحسس لسعة البرد في وجهي كلسعات الدبابير، خاصة في مفصل الأنف الذي فقدت الإحساس به. وكأن الشمس، وقد نزعت ثيابها، استحت من نظراتنا، فاختبأت خلف أوراق الأشجار الباسقة، ولم تمنحنا دفئها، وكأنها هي الأخرى هربت من الصقيع.

أثناء الجري، أرهقتني عملية الشهيق والزفير، شعرت كأنني أتنفس ثلجًا، مما سبب حساسية شديدة في الحنجرة ومجرى الأنف. خشيت أن أصاب بالزكام، فغطيت أنفي وفمي بورق الكلينكس، لكنه كان يتمزق من رطوبة أنفاسي، فاستبدلته مرارًا حتى تمكنت من إنهاء دورتين حول الغابة بصعوبة بالغة.

رغم كل ذلك، وجدت في البرد دافعًا للهرولة، رغم تجمد أصابع قدمي. توقفت عدة مرات بسبب الإجهاد، كما أن التنفس عبر الفم أرهق الحنجرة، فانسحبت من الماراثون خوفًا من المرض.

كانت السيدة شاشتين تكرر نشاطها كل صباح سبت، فصرت من أوائل المشاركين معها، حتى أني أشعر بالضيق إذا

تأخرت أو غابت. كانت أنشطتها الرياضية والثقافية والترفيهية تشغلنا عن محنة دائرة الهجرة والفراغ العائق.

خلال الهرولة، كانت تجري إلى جانبي الآنسة لونا، أو ربما كنت أتبع خطواتها، تلك المزدانة بالفتنة والألق، بطولها الفارع ووجهها المشرق وقوامها الرشيق. وجدت في مصاحبتها فرصة لأستنشق رحيق أنوثة نقي، فهي كالوردة في أول تفتّحها، لم يلامسها دبور ولم تفتقد عبيرها. كانت مشبعة بالأنوثة، رقيقة، مرحة، سلسة، عذبة، طرية، بريئة... حتى أنني كدت أن ألوث براءتها بزفرات طيشي، حين راودتني رغبة في احتضانها وتقبيل خدها، بعد أن اقتربت مني لتساعدني على مواصلة الجري.

نظرت إليّ نظرة بريئة، تملكتني بها، فبت أهجس السحر ينساب على أسيل خدها، يترقرق تحت وهج العرق المصبوب من بشرتها الجذابة، سحر يوائم جمال شعرها الذهبي المنساب كخيوط حرير على جانب وجهها. بدت كزهرة عباد الشمس، تبحث عن شمس تبهج مفاتنها، وشمس تبتهج بها. خلتها قرينة زوجتي، فتقربت منها دون وعي.

كنت أهرول إلى جانبها لتشدّ أزري، أحاول مجاراتها. كانت في ريعان شبابها، في قمة لياقتها، ابنة العشرين عامًا، بينما كنت في منتصف العقد الثالث من عمري. شعرت بسعادة غامرة حين مدت لي يدها لأجاريها في نهاية الدورة الثانية.

مـا أن لامـس كتفـي كتفهـا، ومـا أن لاحـت خياشـيمي نسـمة عطـر هادئـة، كنفحـة لافنـدر تنبعـث مـن ثناياهـا، حتـى دنـوت منهـا راجيًا قبلـة، لـولا أن لاحـت إشـارة مـن والـدتها تحثهـا علـى اللحـاق بهـا، وكأنهـا شـكت بنيتـي، فهجسـت بـالموقف كصـفعة ضـمير، أعادتني إلى رشدي، وانتشلتني من شرودي.

كانـت حـرارة أجسـادنا قـد ارتفعـت مـع إتمـام الـدورة الأولـى، وتفصّـد الجبـين بـالعرق رغـم شـدة البـرد. شـعرت بالنسـيم وكأنـه شفاطة تسحب الحرارة من الجسد، وتحول نداها إلى برد.

مـا أعـاق اسـتمراريتي فـي الهرولـة هـو ضـعف ليـاقتي البدنيـة، وطبيعـة الأرض غيـر المسـتوية، والأغصـان السـاقطة، والجـذور المتشـعبة، إلـى جانـب خطـورة الممـر المحـاذي للبحيـرة. خفـت أن يختـل تـوازني وأسـقط كحجـر صـامت فـي المياه المتجمدة.

أخيـرًا، عـدت إلـى غرفتـي، لـم أسـتطع إكمـال المشـوار. بـدلت ثيـابي، أزحـت عـن جسـدي صـنم العـرق، تحممـت، وتمـددت علـى فراشـي. سـرقتني إغفـاءة قصـيرة، أزاحـت عـن كـاهلي كتـل الإرهـاق والتعـب والكـدر. ومـا أن أفقـت، حتـى توجهـت إلـى المطعم، حيث أزفت ساعة الغداء.

بعـد ذلـك النشـاط الصـباحي، دبّ فـي جسـدي نشـاط زهـري، كشـط عنـي الكسـل والخمـول، وانـتعش الفكـر والقلـب. أمسـكت قلمـي، وبـتّ أسـطر خـواطري علـى الـورق، فكتبـت شـيئًا بسـيطًا عن لونا، وعن الفرق بينها وبين زوجتي.

ترانا في رواق الغد

أم لا ترانا

الشمس اضاءت جانبا من هوانا

صرنا بين شواطئ الحب

لعبة

هذا يليك بنا

وذاك يغز رجانا

ترانا

دون أن ترى فينا جِوانا

لسنا في ضيق

أنما تشبث الضيق في هوانا

ليتنا ما حلمنا في الغد

وما اغتربنا

ولا شئنا نزحف خلف عنانا

في دروب السعي كنا قد افتقدنا أحبتنا

وما نلنا من السعي منانا

ترانا في رواقِ الغدِ، أم لا ترانا؟

الشمسُ أضاءتْ جانبًا من هوانا

صرنا على شواطئِ الحبِّ لعبةً

هذا يُداري بنا، وذاك يغز رجانا

ترانا... دون أن ترى فينا جِوانا

لسنا في ضيقٍ، لكنه تشبثَنا بهوانا

ليتنا ما حلمنا بالغدِ، وما اغتربنا

ولا شئنا أن نزحفَ خلفَ عنانا

في دروبِ السعيِ، افتقدنا أحبتنا

ولم ننل من السعيِ ندا منانا...

\\\\\

في عصر ذلك اليوم صحبت أسماعيل وفاروق وأنس وعلي إلى شاطئ البحيرة المتجمدة، كنا قد قضينا يوم استجمام جميل ونحن نتجول فوق سطح البحيرة بشيء من الرهبة والقلق، خوفا من أن تنهار قاعدة الجليد تحت أقدامنا ومن ثم نسقط في

مياهها الباردة. رغم برودة الطقس، جلسنا فوقها ورقصنا وجرينا بقلوب خافقة وجلة. خاصة فينا من لا يعرف فن العوم.. وحتى العوم لا يجدي نفعا مع لسعة البرد التي لا تحتمل.

هكذا شطبنا يوما من أيام الغربة المرة، وكأن تلك الأيام غير محسوب على العمر، لشدة ثقلها ونحن نطارح الهم، ننتظر أن تنفك اصفاد القيود عن أقدامنا. حتى أني صرت أقرف اليوم القادم؛ أحسب له ألف حساب، لثقل دقائقه وثوانيه السمجة.

العلم

بعد إشارة السيدة رندا، ثار أبو وسيم على نفسه، أضحى أشبه بالذي لسعته عقربة، لا يركن إلى موضع قدم، رانت مستشعراته نحو الفكرة باندفاع شديد، صار يبحث في جوف المستحيل عن صيغة ما لإكمال الفكرة.

لابد من بتطبيق فكرة المشروع على أرض الواقع. أحيانا الفكرة لا تطابق المنهج المراد، أو استحالة توافقها مع طبيعة الارض مع قيمة التكلفة وبداءة الخبرة. لذا صار يستعين بهذا وذاك باحثا عن صيغة توافقية للبدء بعمل مشترك....

يا ترى؛... كيف يبدأ؟

من أين يأتي بالأخشاب؟

كم ستكون التكلفة؟

كم من الأخشاب سيستخدم لمساحة 600 م^2 ؟

سيل من الأسئلة صبت في ذهنه، بات يبحث لها عن أجوبة ليهدأ باله، أضحى أشبه بالطير المهاجر بين المدن من أجل جلب مستلزمات العمل، من أجل إيجاد ظل يأويه.

في الصباح اليوم التالي كان قد طرح الفكرة على إدارة الكامب وبالذات على السيد بار مشرف الكامب، وجد اندفاعا

وتأييدا من قبل الإدارة والمهاجرين، حينها طلب أبو وسيم من السيد لورانس أن يجسد له نموذجا ببرنامج الفوتوشوب.

كنت قد وجدت في مشروع أبو وسيم فرصة جيدة لتجديد حيويتي، لأشغل ذاتي وأروض حالي. لأهرب من قيد الفراغ الذي صار يدخل إلينا من جيوب أفكارنا كالريح الباردة، يزكم عقولنا ويعطب مستشعرات أعصابنا. وجدت في العمل معهم تسلية وراحة بال ومتعة، لأدعس الفراغ القاتل الذي أستتب بخموله ودجنه في العقول، كما أن المشاركة منحتنا فرصة التعرف على آخرين، أبدلت الجفوة بالمخالطة، جزلت شمع العقد من على الذهن.

بفكرته كأن قد أنجد الكل من وحشة الغربة والفراغ الجانح بعقولهم، لأن الكل كان يعيش ذات اللحظة الطافحة في الوسط بالمرار عبر ثلب الفراغ العائمة.

كلٌ منا كان محتفظا بشيء من الصمت والتهكم في داخله؛ بسبب فراق الوطن والأهل والأحبة، وكأنَّ الفراغ دق أسافين العناء في ألوح أحلامنا، فبات يجرجرنا خلفة كعربة الحصن، متحملين عفسه ونغصه وتكالب الاحزان. كنا قد وضعنا أنفسنا داخل قوس التسديد بين الفرضة والشعيرة، هاربين من واقعنا المر وعقد دائرة الهجرة، لننجدها بالحكمة متى ما سنحت لنا الفرصة..

في المساء تجمع الجمع قرب المطعم، طلب أبو وسيم من الجمع التجمع صباح اليوم التالي بالورشة للمباشرة بالعمل.

الجميع آزر أبو وسيم، ساندوه، عقدوا العزم على مواصلة التحدي. ما أن طرح الفكرة حتى هب الجمع كعصبة للمشاركة بتنفيذ فكرة المشروع، وجد دعما قوي وتأييد منقطع النظير من أغلب المتواجدين وأهل المنطقة. كان لشطارة السائق مزعل دور في لملمة الأمور، حيث بذل جهدا مضنيا في استتباب الأمر بجمع عددا من الشبان لحمل تلك المقتنيات وإيصالها للورشة.

وفي اليوم التالي جلسنا في الورشة نتداول أمر أنشاء العلم.. ما كان يشغل باله هو طريقة بناء العلم وأسلوب إنشائه...يا ترى؛ أيمد مساطر خشب على طولها، ثم يثبت أطرافها في الأرض؟ أم يفرش الأرض بقطع من خشب الإبلوك المضغوط بحيث يجعلها كمسامير مدقوقة بالأرض؟.. ظل في حيرة من امره في كيفية إنشائه.....

هكذا صار يسألني، لم أتوانَ في إسعافه؛ حيث خطرت في بالي فكرة بناء العلم من البداية، لابد أن نجتث الحشائش من عروقها، أن نحفر الأرض بعمق شبر على الأقل لتكون القاعدة خالية من عروق الحشائش، ثم يجب فرش البقعة المحفورة بقماش ثقيل من الكتان أو من بلوك النايلون الأبيض، أو من نسيج الخيش، كي تمنع تدفق الحشائش بعد نموها مرة أخرى. ثم نثبت الخشب في الأرض كتثبيت المسامير في اللوح. علينا أن نزرع عرانيس الخشب زراعة على مساحة العلم..

نعم نزرع الخشب، نُقَطِع المساطر إلى أجزاء طول الجزء ثلاثين سنتمتر، ندبب أحد الرؤوس لغرسه بالأرض بطول عشرة إلى خمسة عشرة سنتمترا، ونطلي الطرف الأخر بالوان العلم، وبذلك لن يتأثر بالتعرية ولا تتغلب عليه الأعشاب والحشائش مهما طال الزمن، كما يمكن إعادة طلي الأخشاب بين فترات متباعدة من الزمن.

كنت قد أخذت الفكرة من بطون الذاكرة حين رجعت بي لكرسي الدراسة، لمرحلة الطفولة، حين شاهدت استاذ الرسم يرسم وجه الرئيس مجسما بالمسامير على لوحة خشبية، بعد أن حدد ملامحه وشعره بقلم الرصاص...

حينها قال لي:...

- فكرة جميلة أن نزرع ستمئة متر مربع بعرانيس أخشاب الملونة، أنها فكرة صائبة، شكرا لك يا عبقري، أنقذتني.

يقول الفيلسوف الصيني كونفوشيوس ..

"ما يبحث عنه الرجل المتفوق في نفسه، يبحث عنه الرجل العادي في الآخرين".

استقرينا على تلكم الأفكار، جمعنا الأخشاب، هيئنا المهاجرين الذين زاد عددهم عن خمسين شخصا في نهاية الأمر، قررنا العمل في الورشة الكائنة في بناية استربو، توافدوا الفتية وهم في فورة شبابهم على العمل.

حدد الموقع مثلما أخبر زوجته في قلب القطعة، وفي وسط العيون. وكما أخبر أبو عبدو في بقعة تعليق القمر ليشع نوره.

كنا نعمل في الورشة على فترتين، صباحية ومسائية ولمدة اسبوعين، بحيث مجموعة صارت تقطع الخشب وأخرى تصنفره وتنعمه بألة الجز والتنعيم، وثالثة تدهنه بصبغ البويا الأصفر والأزرق، على أن ندهن كل ثلاثة عرانيس بلون أزرق مقابل عرنوس يدهن بلون أصفر لتحديد النسبة.

مشاركة الفتيات ولد لنا اندفاعا للعمل وزرع في نفوس الشباب حافز، بحيث تضاعف العدد مع مرور الايام، هكذا بدأ المشروع يُجهَزْ بأسرع من الوقت المتوقع له.

كنت أجد في مجموعة النسوة اللاتي تطوعن للعمل فرصة نسيان الهم والوحدة في العمل معهن، عملت بمرافقة تلك النسوة الجانحات في فتنهن، المشاكسات والمسافحات في عقولهن وافكارهن ونظراتهن، المارقات في جداول خيالنا كأنهار من الزبد بحسن معانيهن وهن يتطوحنَّ بين بسطة الشباب، يسهلن الحياة، يزحن العقد، خاصة ونحن كعصبة وجدنا الألفة التي كنا عليها كباقة ورد منوعة. بتواجدهن سُهل العمل، سلست العقد، نخلنا الذهن من اشواك الهم والغم، نسيانا ذلك الفراغ وسقم الوحدة.

النسوة وهن يعملن، كنَّ أشبه بخرز المسبحة في أيدي الشباب، يسبحون بمفاتن أجسادهن وملاحة فتن وجوههن وبشرتهن، بحيث بنظرة إلى صدر تلك ولهفة إلى شفاه تلك

وعيون تلك، وإلى دبر وسيقان تلك وإلى بابتسامة تلك...الخ ندعك الصعوبات من جهد وبرد، ندعك خشونة وجه الحزن. يُنسِينَّ مشاكلنا وهمومنا، حيث نبهج أجواءنا بالطرافة والنكتة والمزاح الخفيف وأحيانا الثقيل الذي فرض وجوده حسب الحالة، هكذا شطفنا العقد.

تهتُ في فسيفساء تلك المفاتن؛ أذبتُ شمع الفراغ بوهج تلك الصدور والمفاتن، شغلت بالي بسحرهن لأنسى مشقة الغربة والفراق، بذلت جهدا مضنيا، حيث فاضت الهواجس بين الطرفين بمحض الصدف والرغبة المتبادلة.

ما كانت تشدني إلى الألفة؛ هي الفاتنة سهى والجميلة خديجة بالإضافة إلى خفة منال وسقطة حميدة، اللاتي كن أول من تطوعن للعمل، اللاتي أشتركن في ذات العمل الذي كنت أقوم به، حيث أنيط لي عمل صبغ العرانيس، كنا نغطسه في سطل البوية، ثم نتركه جانبا لليوم التالي حتى يجف. عاونتني سهى في سبك العرانيس، فيما انشغلت خديجة في تصفيفها وترتيبها.

وهي تعمل معي كانت تكف بنطلونها لحد الركب كي تتجنب تأثير الصبغ، فتظهر سيقانها البضة وكأنهن مصابيح مطلية بماء الفضة، للسحر المنتبذ بهنَّ.

حين تنحني إلى السطل؛ تكشف لي عن الجواهر المكنونة تحت قميصها الزيتوني، كانت أزرار قميصها مفلجة، لذا كنت أزاور تلك المفاتن عن قصد. لأجد في البرتقال الناضج

المتـدلي فتنـة الألـق والتكـور، هجسـتُ فـيهن عذوبـة تصـعق الروح وعناء يشغل الفكر. تغزلت بها قائلا:...

- برتقالاتـك فـيهن فتنـة برتقـالات زوجتـي، آه كـم اشـتقت لهن.

حينهـا تغيـر لـون وجههـا، تلـون بـاحمرار واصـفرار، غشـي وجنتاهـا لحيـرة، اصـابها خجـلا مغـل شـط بـين عينيهـا، قالـت وهي مغنوجة بابتسامة:...

- أه منـك يـا إبلـيس، تـود تطليقـي مـن زوجـي، كـل يـوم أتعـرى أمامـه ولـمْ أسـمع منـه إطـراء أو ردة فعـل ككلماتك الرنانة، بالله لا تزدني هما وشجنا.

بـتُ أتبـع هـواهن وأهـوائهن بحجـة أو دون حجـة، كنـت قـد سـرقت مـن وجنـات سـهى قبلـة خاطفـة، فاجأتهـا بهـا، حينهـا تسـمرت فـي وجهـي وهـيَّ مغشـية بخـوف مُقَنّـعْ مـن المحـيط الدائر، فأشرتْ برجاء لأكف عن مغامراتي.

لقـد زرعـتُ فـي ظـن سـهى مسـمار الشـك، صـرتُ أتقـرب منهـا كثيـرا لألاطفهـا، كمـا جنحـت لبـراءة خديجـة التـي وجـدتها كلوحـة المونـاليزا أتأمـل معانيهـا، أتمعـن بابتسـامتها الجذابـة وصـفاء عينيهـا، وأنغمـس فـي الحـزن الشـفيف القـابع فـي وجنتيهـا؛ كـدت أحتضـنها فـي زاويـة الورشـة، لـولا عصـا الضـمير وعصـا سـهير التـي أوهطـتنِ، فتجنبتهـا، هكـذا قضـيت أيـام العمـل بيـنهن بـين حيرة ورغبة.

هكذا تكلل جهدنا برسم لوحة جميلة، الفكرة كانت سحرية، أجبرت الجميع على الاشتراك بتنفيذها. هناك من قطع الخشب، وهناك من صبغ الخشب، وهناك من نقل الخشب، ومن غرس الخشب بالمطارق حتى شُمعتْ الثياب على الأجساد بالعرق، نتيجة الجهد المبذل ورشح العرق المتصبب رغم البرد.....

هناك من أوصل التيار الكهربائي في جو قارص زمهريري مكلل بالثلوج، الأنامل تكاد لا تتحسس الأسلاك لتصلبها وارتعاشها. الكل أجتهد وعمل حسب اختصاصه، كنا كخلية نحل متماسكة.

الفكرة جعلت للجهد المبذل ديناميكية سحرية، بحيث تناغمت الفكرة مع الجهد المبذل وسرعة التنفيذ. غدت الفكرة تتراءى للعيان كمصباح نير، يستلهم طاقته من الجهد واليقين الذي فرض ذاته.. رسمنا شكل القمر وسط كامب (صول بكا) بعد أن أحيط العلم بأضواء فلورنسية من البلوجكتر. بانت البصمة واضحة على حلتها الأخيرة كصرح يبتهج به الجميع، بحيث جعلت السويد بأكملها تبتسم لهذا الصرح، بعد أن تتبع إعلام الدولة المقروءة والمرئية والسمعية العمل عن كثب. ربما سيخلد العلم لعشرات السنين.

كان من الضروري بعد أن أنجز العمل أن يوضع في إطار يحيط العلم من جوانبه بعرض متر، أضيف لهذا الإطار شبكة من الحصى الناعم المطلي بالإسمنت الأبيض، ليبرز شكل العلم بالشكل الأنيق اللائق. كما أحيط بهالة من أشعة الإنارة

الساطعة ليلا، وذلك بنصب عددا من أضوية البلوجكتور في زواياه، فبان يسطع بوضوح في ساعات الليل كبدرٍ الدجى، يفيض سطوعا وألقا على المنطقة المحيطة به.

بعد انتهاء العمل وقف ابو وسيم (عماد) إلى جانب رفيقه أبو عبدو يتأمل مشروعه مبتسما، جذلا، فخورا بنفسه وبرفاقه الذين شاركوه وشدوا على أزره.. قال له ممازحا:...

- ما رأيك يا أبو عبدو؟ كيف يبدو لك المنظر البديع بعد أن أكتمل العمل؟
- ألم أقل لك أنت مجنون؟ والله عمل كهذا لن يخرج إلا من رأس مجنون مثلك.

حينها تأبط أبو وسيم ثم دخلوا لباحة المطعم ليرتشفوا القهوة ابتهاجا بإنجاز العلم وبحلول أعياد راس السنة الميلادية 2018/1/1.

بعد انتهاء العمل عاد الينا ذاك الفراغ يتأبط مشاعرنا ويذكرنا بأحبتنا كالمجانين. ظل الشوق يطاردنا من مكان لأخر لذكرى تميس الفكر.

رياضة التزلج

قبل أن ينقضي فصل الجليد، وعدتنا السيدة شاشتين برحلة تزلج على الجليد، وكانت عند وعدها. تلك الرحلة كانت آخر عهد لنا بكامب صولبكا في السويد، حيث تركنا خلفنا ذكريات ممزوجة بالفرح والمعاناة.

كنا حينها نرزح تحت وطأة قرارات دائرة الهجرة، التي بدت وكأنها تفتقر إلى أدنى درجات الإنسانية. قراراتها كانت قاسية، تنضح بالعناد وتفتقر إلى الرحمة، وكأنها تتعمد أن تزرع اليأس في نفوسنا. لم تعنِنا على الاستقرار، بل زادتنا غربة فوق غربة، وظلماً فوق ظلم.

تذكرت حينها ما نُقل عن وزير خارجية بريطانيا عام 1907، حين اجتمع بحلفائه الأوروبيين وقال:

"إذا أردتم أن تبقوا سادة العالم، فاستغلوا المنطقة العربية من المحيط إلى الخليج. شعبها واحد، لغتهم واحدة، ودينهم واحد. أرضهم مليئة بالخيرات، وإن استُغلت، ستتربعون على القمة طويلاً. اجعلوا شعوبهم متخلفة، تضمنوا المستقبل. فإن فطنوا، سيعودون لحضارتهم ويجعلونكم تخضعون لهم كما كنتم في العصور الوسطى."

وحين سألوه عن الحل، أجاب:

"ازرعوا جسماً غريباً في وسطهم، يشغلهم بالمشاكل ويفتت وحدتهم. ادعموا ذلك الجسم ليكون أقوى منهم."

وبعد أربعين عاماً، ظهر ذلك الجسم الغريب في شكل دولة إسرائيل، التي شُجعت على الهجرة إلى فلسطين. وهكذا دفع العرب واليهود والفلسطينيون الثمن، بينما بقيت بريطانيا وأوروبا خلف الستار، تحرك الخيوط وتقطف الثمار.

دمروا أوطاننا، مزقونا باتفاقية سايكس بيكو، جعلوا حكامنا بيادق في أيديهم، وهجرونا لنلهث خلف الاستقرار، بينما هم ينهبون خيراتنا. صبغوا حياتنا بلون باهت، جعلونا نعيش في دوامة من العقد والهموم، نبحث عن راحة لا تُرى، وعن أمل يتوارى خلف الضباب.

وسط هذه المعمعة، كانت السيدة شاشتين بصيص نور في عتمتنا. تزورنا كل أسبوع، تحمل معها فكرة جديدة، وشعلة تضيء لنا الطريق. تعلقنا بها، لأنها كانت تجسد الألفة والفرح، وتمنحنا لحظات من الحياة التي افتقدناها.

في صباح مشرق، جاءت ومعها معدات التزلج: عصي، مساطر، وأحذية. بفضل مكانتها في المجتمع السويدي، استطاعت أن توفر هذه الأدوات لتشرك أكبر عدد من المهاجرين في نشاط جماعي ترفيهي، يعكس حسن النية والدعم من أهل المنطقة.

اجتمعنا في بهو المطعم، ثم تبعناها إلى ملعب الجولف المغطى بالثلج، وكأنه عروس ترتدي ثوباً ناصع البياض تحت شمس آذار الغاربة. الثلج بلغ ارتفاعه قدم، والبرد كان قارساً، لكن الحماس غلب علينا.

بدأنا نتزلج، مستندين إلى العصي، نحاول التوازن فوق الثلج. كانت التجربة صعبة، خاصة للكبار وأصحاب القامات الطويلة، بينما الأطفال أبدعوا فيها، وكأنهم ولدوا للتزلج. أدركنا أن هذه الرياضة، كحال السباحة، يجب أن تُمارس منذ الصغر.

سقطنا مراراً، ضحكنا، تعثرنا، لكننا استمتعنا. أبو عبدو وزوجته تبادلا الضحك بعد سقوطهما، وترامب، لضخامة جسده، اكتفى بالمشاهدة. أما أنا، فقد حاولت اللحاق بسهى، التي كانت ترافق فاطمة الإريترية، لكنني فقدت توازني مرتين وسقطت على ظهري، حتى كسرت شاشة هاتفي.

أيقنت حينها أنني لن أتقن هذه اللعبة، وأن أعمارنا قد شاخت أمام مرونة الجسد المطلوبة. لكن رغم ذلك، قضينا وقتاً جميلاً، ضحكنا، تنزهنا، وشكرنا السيدة شاشتين على مبادرتها.

في نهاية اليوم، وزعت علينا ساندويشات الهمبرجر والعصائر، وجلسنا نتبادل الأحاديث. كنت أراقب سهى تلف رأسها بشال أصفر، تقف بجانب خديجة، التي كانت تبتسم ابتسامة عريضة. شعرت وكأن شيطاناً يوسوس لي، فغرقت

في تأمل نظراتها وعندما قدمت لي قارورة ماء قالت لي جهز نفسك لبكرى سنطبخ أنا وسهى الدولمة، شكرتها وكأني شكرت حبيبتي. عندها أشاره إلى شراهة ترامب في الأكل وهو يلتهم الساندويشات بشراهة دون أن يفكر بغيره.

عدت إلى سريري مثقلاً بالهم، أدخل غرفة الشجن والمحاسبة، أحاسب نفسي على كل هفوة، كل لهفة، كل نظرة. ثم أعود إلى ذكرى حبيبتي، إلى واحة الأمان، حيث لا راحة حقيقية إلا بصوتها.

اتصلت بها:

– ألو...

– مساء الخير.

– مساء النور والسرور... أشعر أن وزني خس خمسة كيلوغرامات خلال الأشهر الستة الماضية.

– هههه، أحسن، دع كرشك يذوب. الغربة أدبتك، وجعلتك تعرف مكانتي.

ضحكنا، تبادلنا المزاح، ثم أخبرتني أنها تشعر بألم في صدرها، وأنها تنتظر نتائج فحوصات قد تكشف عن مرض خبيث. حاولت أن أهدئ من روعها، أن أزرع فيها الأمل، أن أذكرها بأن الفرح والنسيان هما العلاج الحقيقي.

لكـن خبرهـا زادنـي ألمـاً، جعلنـي أنـدم علـى فراقهـا، وأشـعر بـأن المـرأة دون زوجهـا تهجـس بـذاتها عاريـة، لا تسـتطيع مواجهـة الحيـاة وحـدها. صـارت الكـوابيس ترهقنـي، أتـابع أخبارهـا يوميـاً، أواسيها، وأحاول أن أكون لها سنداً من بعيد

13- الفراغ

مع مرور اللحظات، بات الفراغ يتدفق في داخلي كطوفان من العقد، كعين تفيض بالنكد، تغمرني بسخام الشجن وتثقلني بزنم القرف. كلما سعيت نحو بصيص أمل، لاح لي شبحه كظل يتبعني، شيطان أخرس يتلبسني، يلاحق جنوني، ينصب أمامي شواخص العقد كحواجز تعيق خطوي. وحين أنسى شجون الوحدة، يعيدني إليها، يذكرني بها مع كل يوم غادٍ.

انحدرنا عميقًا نحو وهدة الوهم، حتى لاحت لنا لحظة القطيعة تتجول في خواطرنا، تنتظرنا على رصيف الشوق. انكمشنا حول ذواتنا، عاجزين عن التواصل، غارقين في وحل الفراغ، مكبلين بالهم والعقد. لم أجني من رحلتي سوى الكدر والهوان، والإسفاف والشجن.

كنا نبحث عن صيغة توافقية تخرجنا من دوامة الحياة المريبة في أوطاننا، لكن المجاز الذي سلكناه لم يمنحنا عقيقًا ولا فيروزًا، ولا لآلئ صبر تغنينا. ضاعت الأحلام، واشتد التحدي، وتفوق القرف على رجاء الظن. عبث الزمن بالفرص، وفرض علينا الوحدة والفراغ، فسلكنا خط الوهم ونحن نعلم أنه لا يسمن ولا يغني من جوع، لكنه كان ملاذنا الوحيد. لم نملك مفاتيح التغيير، ولا طريقًا نحو الجنة.

كان الحلم خيالًا طافحًا على سطح الظن، نقطة زيت تتبعناها هربًا من يأسٍ عمّ أوطاننا. لم نجد مخرجًا سوى ارتداء بدلة

المجازفة، كأبطال الأفلام، فابتلعنا أقراص الصبر والهم، وانتظرنا تحسن الأحوال دون جدوى.

اختلطت أفكارنا بأطياف الألوان، حتى فقدنا التمييز بين الأبيض والأسود، وتلاشى الزمن من حساباتنا. الأيام باتت مجرد أرقام، لا فرق بين نقصانها وزيادتها، فهي فارغة، بلا رجاء. كنا على بعد خطوة من الحلم، لكنه تلاشى في لحظة غفلة، اختفى خلف أدراج موظفي الهجرة، ومنذها ونحن ندور في فلك الفراغ، كفئران تتبع القطط نحو الهلاك.

تداخل الظن والتفكير وفقدان الثقة بالنفس وخواء اليقين في نسيج حياتنا، حتى صرنا نحيكها بأيدينا، بفعل منغصات الحياة التي سلبتنا البهجة. باتت الدقائق العابرة جزءًا من روتيننا، بل شكلت مصائرنا، خاصة ونحن محرومون من العمل دون إقامة.

صرنا نرقد في الفراش حتى تتقرح أجسادنا، لا يزيدنا الشاي والتدخين إلا سخطًا وندمًا، وتحولت اللحظات العابرة إلى جمرات تكوي مضاجعنا. في عزلة الوحدة، تستسلم القلوب للهموم، وتشتد صفائح الذاكرة، حتى لم أعد أسمع سوى صفير اليأس وندم يتردد في أذني، كقطرات حزن تتساقط من صنبور صدئ فوق رأس سجين في زنزانة فردية، تولد خلخلة في العقل تودي إلى الجنون.

منذ أن انكسرت جرة الوطن، ضاعت هيبته، وتشردنا بين الدول. بدأت أحلم بالظفر بالذات، بحق أن أعيش صباحًا

مختلفًا عن صباح الوطن. كانت أحلامًا هشّة، بعثرتها رياح الغربة بين أشواك الزمن، كأوراق يابسة بلا روح.

كانت أحلامي بسيطة، لا تتجاوز رقعة قدميّ، حلمت بالسكينة والاستقرار، تخيلتها هالات مدفونة خلف سحب الظلام، تدوسها أقدام السفهاء الذين باعوا الوطن لمصالحهم. تبعت الظن في مجاز طويل، وجدت في الفراغ متسعًا للغاية، لكن الحلم كان هباءً، لا يُمسك إلا بمجازفة حية. فجازفت، آملاً أن أحقق شيئًا مما يجول في ذاكرتي.

الفراغ نعمة في الاستقرار، لكنه نقمة في التزعزع، إذ يفقد الإنسان تحكمه بنفسه، ويغدو كمن يبحث عن حياة وسط كومة من الثعابين والعقارب. لا أدري لماذا أشعر بهذا الشعور المقيت، رغم أني أؤمن بأن الإنسان مسيّر أكثر مما هو مخيّر، كما قالت لي أمي حين سألتها: لماذا جارنا غني ونحن فقراء؟ فأجابت: الأرزاق بيد الله.

لكن تلك الإجابة ظلت تدور في رأسي، غير مقنعة، حتى أدركت أن الرزق يتبع صفات الشخص. الله وهبنا العقل، وترك لنا حرية القرار، وما يصيبنا هو نتيجة سوء تدبيرنا وتراكم أخطائنا. الله لا يعذب مخلوقًا تافهًا أمام عظمته.

استغلال الوقت يزيد الثقة بالنفس، فاللحظة المحترقة تحرق جزءًا من العمر، ولن تعوضها لحظة أخرى. الوقت كالسيف، ومن لم يحسن استغلاله خسر فرصًا لا تعوض. وقت الفراغ يحتاج إلى ذهن وموهبة، كأنه مصفوفة رياضية تحتاج ترتيبًا

وتفعيلًا. البعض يقتله بالمسلسلات، والبعض ينمي مواهبه، وفي النهاية، كلٌ يُجازى بما فعل.

آه، ما أصعب أن يعيش الإنسان في بالونة من الفراغ، في فضاء من العتمة، حالة من الدوشة والصمت في العيون الحائرة. نبحر بين صحف اليوم واحتمالات الغد بقوارب بالكاد تقاوم موج العصف.

زوجتي تركت في حياتي فراغًا أراه ككأس نبيذ، ما إن أرتشفه حتى يذلني، كأس مثقوب، خالٍ من الحلم والرجاء، ينضح بالصمت والعناء. ذات مرة، حاولت أن أملأ فراغي برغاء الخمرة، فذهبت إلى بار، جلست أراقب الداخلين والخارجين، حتى شعرت بالقرف من نفسي، أقارنها بأولئك الشواذ، جمعتهم الضياع كما جمعني الفراغ.

قلت لنفسي: دعني أجرب حياتهم، أغير نمط سلوكي، علّي أن أجد شيئًا يلهيني عن الهم والوجل. طلبت كأس فودكا وقوارير بيرة، شربت دون وعي، فقط لأهرب من الوهم الذي يرافقني.

في غيي، أردت أن أسبق الزمن، لكني وجدت نفسي أتسكع خلف الجميع. عدت إلى الله، أتممت الفروض، دعوت، عسى أن يحل عقدة كربي. صرت أتأرجح بين الإيمان والزلل.

لا أجدها حالة مرضية، وإلا ما ذلك الشبح الذي لا يغادر ذهني؟ بفراق زوجتي، أتحول إلى فاسق، مجنون، عابث، فقط لأنسى ذاتي والقدر. ولهذا، كلما اشتد الشوق، اتصلت بها،

عسى أن أخفف وطأة العذاب. وقبل أن أرفع الهاتف، رنّ على عجل...الو

- هلا بالحبيبة، مساء الورد والياسمين كيف حالك يا غالية، قبل أن أطرق على رقمك رن الهاتف.
- القلوب عند بعضها، كيف حالك وصحتك؟
- بخير والحمد لله... أخبريني عن الفحوصات.
- فعلا أود أن أخبرك بأن الفحوصات التي أجريتها بشأن الأورام التي انتشرت في الثدي أورام حميدة، عبارة عن تكتلات مائية، لا تقلق بهذا الشأن.
- الحمد لله على سلامتك، ألم تعرفي سبب ذلك؟
- يحدث هذا بسبب توقف الأنجاب وجفاف الحليب، هذا والله أعلم حسب ما قاله لي الطبيب.
- المهم أن تأخذي الأدوية بانتظام وأن تدخلي صالات الرياضة حيث الكسل يولد خمولا في الجسم مما يؤدي إلى أنتشار تلك الأشياء الغريبة، غير الطبيعية.
- هل تعلم أن الطبيب نصحني بذلك! أنشاء الله تستتب الأمور خلال شهر أو شهرين. قلي ما أخباركم، هل من جديد.
- لازلنا نراوح في أماكننا وكأنَّ دائرة الهجرة ركنت ملفاتنا فوق الرفوف أو رمتها في سلة المهملات.
- الله كريم أصبر، عسى أن تفرج علينا...
- ليس بأيدنا عصا موسى لنغير الوضع، علينا ان نتكأ على الصبر. الله يقول في كتابه الكريم" يا أيها الذين

امنـوا اسـتعينوا بالصـبر والصـلاة وأن الله مـع الصـابرين"
صدق الله العظيم، نصبر وننتظر.

- وهو كذلك.. هيا.. نراكم على خير...
- مع السلامة..

الخبـر الـذي أخبرتنـي بـه أزال همـا ثقيلا مـن علـى القلـب، كـان قـد شـغلني طـوال الفتـرة السـابقة، لـذا رحـت أنعـم بشـيء مـن الراحـة بعد أن كان القلق قد أفقدني التركيز.

المانيا

2020 /09 /01

الثلاثاء

14- جائحة كرونا

بعد أن فقدنا مأربنا وآمالنا في السويد؛ اتجهت لألمانيا على أمل أن أجد فرصة استقرار فيها أعوض بها سنوات الضياع التي ذهبت سدى في مستنقعات وبحيرات السويد، عسى أن نظفر بالحلم ونعيد ترتيب أمورنا ونلملم شملنا ونعيش براحة بال، كان ذلك في 01/ 09/ 2020.

غادرت السويد بعد المكوث فيها قرابة خمس سنوات من المرار مع مجموعة من هم على شاكلتي، كنا قد نفذنا من منفذ مدينة تلبوري السويدية إلى مدينة ترافموندا الألمانية بواسطة الباخرة، ليستقر بنا المطاف في مدينة كيمنتس في مقاطعة سكسونيا.

في كيمنتس تجددت العقد علينا بسبب تعقيدات الإجراءات التي تتعامل بها المانيا مع القادمين إليها، وخاصة مع تفاقم جائحة مرض كرونا الخبيث كانت الأمور قد استتبت على حافتها، حيث أجريت لنا عملية فحص وحجر صحي دام أسبوعين في ظل طقس سيء للغاية، حيث الرياح والأمطار والثلوج التي بدأت تتسقط مع بداية الشهر العاشر.

ما أن دخلنا مدينة كيمنتس الألمانية؛ حتى حجرونا ليومين في ثكنة عسكرية صغير تمهيدا لنقلنا لموضع آخر بعد الانتهاء من إجراءات فحص كرونا وبيان نتائجها.

كنا قد تجمعنا في الثكنة من عدة جنسيات مختلفة، وقد بلغ عددنا بحدود ثلاثين شخصا بين امرأة ورجل وطفل. في اليوم التالي بدأت إجراءات الفحص والفرز تمضي على قدم وساق. كانت إجراءات سريعة جدا قياسا لما يجري في المناطق الأخرى، ولكن لكثرة أعدادنا، يضطر البعض منا إكمال ما بدأ به لإتمامه في اليوم التالي.

ما أن دقت الساعة السابعة صباحا؛ حتى صرنا نسمع طرقا مدوشا على ابواب الغرف من قبل مشرف الكامب وهو يحث المهاجرين على الاستيقاظ واستنباط العزيمة لغرض تجهيزهم لدائرة الفحص المفروض بدء عملها في تمام الساعة الثامنة والنصف صباحا، والتي مقرها لا يبعد عن الثكنة سوى مسافة 200 م فقط.

كان المشرف يطرق الأبواب وهو ينادي بأعلى صوته:...

- هيا – هيا أصحوا - أجلسوا، صار وقت الإفطار، جهزوا أنفسكم لفحص جائحة كرونا، هيا أجلسوا. وكأننا في معسكر للجيش.

كنا قد وصلنا لذلك الكامب قادمين من مختلف أنحاء المانيا، قاطعين في رحلاتنا مسافات طويلة من غربها لشرقها، هناك من قدم من الشمال وآخرون قدموا من الجنوب والغرب، كنت قد قطعت مسافة تجاوزت خمس ساعات من المسير بواسطة القطار، قادمين من مدينة بريمن.

النقطة التي تجمعنا فيها أشبه بثكنة عسكرية مكونة من عشرين غرفة متقابلة، بينهما ممر ضيق بعرض مترين. الغرف مجهزة من الخشب، مطلية بصبغة البويا الأصفر، المكان يستخدم كثكنة مؤقته لتجهيز أوراق المهاجرين القادمين حديثا، ليتم توزيعهم إلى أماكن أخرى دائمة.

كان تجمعنا أشبه بباقة ورد مثلت جنسيات مختلفة، كل منا جاء من ناحية نائية لم يأخذ كفايته من النوم والراحة. الثكنة بفرشها قذرة، أسرتها بالية، حماماتها يشع منها رائحة النشادر لكثرة استخدامها، لذا تجدنا في دواخلنا مقرفين من الحالة ومن طريقة المعاملة الجافة. كنا مضطرين لقبول الواقع على اعتبارها فترة تجهيز. تجد أحدنا أشبه بالمسطول، لا يستطيع حمل وزره.

بعد أن فطرنا وقفنا في طابور طويل، تقدمنا مشرف الكامب متوجهين لغرفة الفحص الكائنة في المبنى المخصص للإدارة الأمنية والفحص الطبي، المكان مسيج بسياج حديدي مرتفع بعلو ثلاثة أمتار، محكم، أشبه بسجن المجرمين.

دخنا المبنى وتوزعنا على صالتي المبنى المتقابلتين، أحداها كانت أكبر من الأخرى، ارتمينا على كراس خشبية كالمرضى الذين أجهدهم العياء. كانت قد سبقتنا وجبة أخرى إلى ذات المبنى ولذات الغرض.

كانت مسألة الانتظار مسألة عقيمة، جدلية، تعد غاية في الصعوبة وبالذات للشخص المرهق الذي لم يتنفس الصعداء ولم يستكين لراحة بعد جهد سفر شاق.

في تلك الصالة، وبين جدران الانتظار الباردة، وجدت نفسي أراقب الوجوه كمن يبحث عن قصة تُروى أو مسرحية تُكتب. كنت أتمعن في الملامح، في الحركات، في الصمت الذي يصرخ أكثر من الكلام. أردت أن أهرب من غربتي إلى خيالٍ ينسيني قسوة اللحظة، فبدأت أدوّن في ذهني ملاحظات عن كل من شدّ انتباهي.

جلست قبالتي فتاة ألبانية، رقيقة القسمات، لا يتجاوز عمرها العشرين. كانت ترتدي بجامة وردية من قماش القديفة، تنساب على جسدها بنعومة، وملامحها تنطق بجمال هادئ. شعرها الذهبي ينسدل على كتفيها كضوء خافت، لكن شيئًا ما في حضورها كان باهتًا. برود دمها غطّى على حسنها، فلم أشعر تجاهها بأي جاذبية، وكأن جمالها كان صورة بلا روح.

إلى جوارها جلست فتاة أخرى، من الكونغو، ببشرة داكنة تتوهج كجمرة مشتعلة. كانت ملامحها حادة، وجسدها قوي، لكن في عينيها لمعانٌ من الألم، وفي قسماتها صلابةٌ تشي بمشقة الطريق. رغم شراستها الظاهرة، كانت تحمل جاذبية فتاكة، كأنها جمعت بين النار والندى، بين القسوة واللطف، بين التعب والأمل.

بدا عليها الإرهاق، فاستسلمت لجسدها المتعب على الكرسي، ساقاها ممدودتان في تراخٍ يشبه الاستسلام، كأنها تذوب في لحظة من السكون. كانت ملامحها تنطق بالحيوية، جسد ثري، مبهج، ريان، مغنج بالعذوبة والحيوية. لرشاقة الساقين والبريق المخفي في ثأدة الفخذين والفتنة في بروز الثديين المنتبذين بالبهاء، جسدها يعكس طاقة دفينة من العذوبة والبهاء، لا تُقارن ببرود الألبانية التي جاورتها. في حضورها شيء من السحر، من الجاذبية التي لا تُفسر، كأنها تنتمي لعالم آخر، أكثر دفئًا وأقل قسوة.

كانت في عمر الورد، لم تكمل دراستها، وانحدرت خلف حلم الهجرة، باحثة عن فرصة تعيد ترتيب حياتها، عن راحة لم تجدها في وطنها. لكن الرياح التي عصفت بأمنياتها في ساكسونيا لم تهدأ، وظلت تصفر في وجهها، تذرو أحلامها في متاهات الإجراءات المعقدة والقرارات الجافة التي يتعامل بها الألمان، وكأنهم آلات لا تعرف الرحمة.

جاءت تبحث عن بصيص أمل وسط أشواك القيد والعنصرية، عن حياة تليق بكرامتها، عن سقف يقيها من قسوة الواقع. وفي لحظة تأمل، وجدت نفسي مشدودًا لحضورها، ليس لجمالها الظاهري، بل لما يشع منها من طاقة إنسانية، من نور داخلي يلامس الروح. كانت كأنها ضوء خافت في عتمة الانتظار، يرقص على أطراف الذاكرة، يوقظ في النفس شيئًا من الحنين، من الطفولة، من البراءة التي افتقدناها في زحمة الغربة.

تلك الفتاة جاءت تبحث عن الكمأة بين أشواك العقد وأحكام القيد وفتائل الإذلال وشبح العنصرية، لترفع سقف المعيشة لدرجة المقبولية، قياسا إلى ما كانت هي عليه في بلدها..

لجاذبيتها، صرت أتبع فتنتها بشيء من البلاهة فهي مفعمة بالحيوية والأنوثة. أهجس في جسدها ضوء يتحرك مع شفق الحدق، يحرك مستشعرات الرغبة خلف أفتنان الجسد، يداعب أوتار الوله على قيثارة الفكر، يشعرني بلسعة النار المستكينة فوق طراوة الفخذين وتنهد الثديين. ضوء قد لا يراه غيري، ينفذ من فتنة الشفاه والبشرة، يرق في الجسد كرجراج القمر وهو يتمادى بنوره في أمواج البحيرة...

ذلك ما دعاني أن أسهك عواطفي برغبة مكفولة في تلك المباهج، بت أشعر بذاتي قريبة من قطف ثمارها الدانية، لذا تمادت عينيَّ بزيغ نظرها عن قصد، وجدتْ في قوامها الرشيق بهاء غصن غض، يوافق عمق نظرتي وقياساتي إليها، لاستقامة القد.... ما شدني إليها هو تلك النكهة الذائبة من الشكولاتة بشرتها، نكهة القهوة المرة عند السهاد، لحظة تأمل البحر عند المساء. أهجس بأكثر من ذلك، للغنج الرائب في طراوة البشرة ودبدبة الفخذين وأناقة الساقين.

تلك اللدانة والجاذبية واضحة في القد وطراوة البدن، وبالذات في الخيزران الممتد من الكاحل لعنجرة الأرداف. لذا صرت أتحيل الفرص لأستكشف ما في صرة الفتنة من سحر وجاذبية تشد حيويتي وتطفئ نار ولعي بسمرة البشرة.

كانت أكثر خشونة ورقة من الفتاة الالبانية، تلك التي لم أشعر بها أنثى، لضمور الصدر وصفرة الوجه، وانحباس الشفة. لم أجد فتنة واضحة بحبات العنب المعلقة بصدرها، وخاصة كانت ترتدي بجامة شتوية تضمر مفاتن الجسد.

لوحتان تجريديتان مختلفتان في التشكيل، أحداها جامدة عبثية وأخرى حيوية رومانسية. كانت ترتدي تنورة بيج قصيرة فوق الركبة بشبر، وقميص شيفون أبيض منقط بلون البنفسج، مفلج الياقة، تخترقه خطوط مائلة من لون تنورتها، معلقة على كتفها حقيبة نسائية صغيرة صفراء.

كان يجاورها رجل أربعيني من البانيا، ناشف الملامح، أملط، كجبل أجرد، منهك، مصفر الوجه، كان هو الآخر قد شاقه السفر فعانى ما عانى حتى أدرك مرامه..

من جانبي كان يجلس إلى يميني كل من أنس، وحاتم وعمر من الذين صحبتهم معي، وإلى يساري رجل لبناني أربعيني. في البداية ظننته الباني الجنسية، لتقارب ملامح وجهه مع الألباني الذي يجلس قبالتي.

الكل كان مجهدا، الكل لم يأخذ كفايته من النوم، الكل يشعر بالجوع وارتخاء عضلات جسده، النعاس غالب عليهم، مترنحون، كأنهم مخمورون، السُّكْرُ وطأ عليهم.

كانت مطروحة في الصالة طاولة مكتب كبيرة، استغل وجودها شاب جزائري، فأرتمى فوقها لإراحة جسده حتى

صار يشخر من التعب. فيما كانت الالبانية مكسورة الرقبة على كتف زميلتها الكونغولية، بينما الكونغولية منحنية الرقبة إلى الامام، مفلجه ساقيها، وبين فترة وأخرى كأن شوكة الحياء تغزها فترتد لوعيها، فتلم تلك الساقين لتستعيد ذاتها.... ثم بعد هنيهة فقط تعود لأدراجها، فاقدة تركيزها وركيزتها، لتكسر رقبتها وتفلج ساقيها، لشدة الأرق والنعاس.

كنت لا أجد مانعا من أن أستغل الفرصة فأسترق نظرة من تلك الأفخاذ الملتهبة لأنها تجلس قبالتي بالضبط وبيني وبينها مسافة ثلاثة أمتار فقط، كنت مجبورا في تبجحي فالقاعة مزدحمة، كنت أهجس بالفتنة اللاذعة هي التي تتبعني، ترشدني إلى الحمامة اللائذة في أيكها وهي تخفق بين الأفخاذ كركة على بيضها، للجاذبية المراءة، المنبثقة منها كشعلة جمر تتقد في سمارها.

مع كل نظرة أهجس بها تلسع ذاتي كعقربة، أحيانا أخجل من ذاتي، فاغض الطرف عنها، ثم أجد نفسي لهجة تتبع فتنتها، لا أقاوم ضعفي، فأعود أبحث عن تلك الحمامة في ديجور ذلك السقم والعذاب، منشدها بسر اللمعة المدفونة في جوهرة البشرة..

لم أستطع أن أغض الطرف عنها، ولعدم وجود كراس أخرى شاغرة، لذا تجدني شارد الذهن، مهووس بتلك السيقان الملهمة. كلما قارنتها بالجمود القابع في وجه الألبانية؛ أرتد إلى نفسي، فأحرق زغب شرودي في اللهبة اللافحة من

صدرها وافخاذها. لقد جعلتني أشذ عن طبعي، فأميل ميل المراهقين، بعيدا عن فكر الزمرة المحيطة بي.

رجال الامن كانوا أربعة، جميعهم من كبار السن، أحدهم قصير القامة، ذات كرش واضح ووجه طفولي دائم الابتسامة. كانت مهمته نقل من يتمم فحصه للمشفى، لغرض تكملة إجراءات الفحص بتصوير أشعة إكسترا للصدر، ثم يعود بهم لكامب الحجر الصحي. وآخر كان متزنا بعمله خلف أجهزة الكومبيوتر لتجهيز هويات الأوسفايزر للمهاجرين، فيما الثالث كان يرتل برجله اليمنى، نحيف الجسد، ناشف الوجه، شاحب اللون، ذات أنف طويل كمنقار اللقلق وشارب مشط في الوجه كأشواك الصبير المنتبذة، تخفق في عينيه الزرقاوين لمعة غيض وحقد إزاء المهاجرين. تكفل بواجب نقل ملفات المهاجرين بين الإدارة ومكتب تجهيز هويات الأوسفايزر.

فيما كان الرابع مسكينا، محتارا بنفسه لفرط سمنه وشذوذ طوله، ربما محيط بطنه وعنجرة عجيزه تتجاوز محيط دائرة بقطر مترين، إذا ما أخذنا طوله الفارع الذي يتجاوز المترين بعشرين سنتمتر. كنت قد مثلته بخزان نفايات، وهو يتحرك في الممر أشبه بغول غابات أفريقيا. أنه أضخم الجميع، تشعر بكل فردة من بنطلونه بحجم كيس نفايات البراميل، لفرط سمنه.

كانت فترة الانتظار مملة جدا، تجاوزت حدود الساعتين دون ان يدخل شخصا من مجموعتنا لغرفة الفحص، بسبب

انشـغالهم فـي المجموعـة التـي سـبقتنا. بعـد تلـك الفتـرة العسـيرة نودي على الألباني وأثنين من الافغان ليدخلا غرفة الفحص.

خـلال فتـرة الفحـص كـانوا قـد تـأخروا كثيـرا، حينهـا سـألني الـذي يجلـس يسـاري، كـان كلامـه بطـيء جـدا، وكـأنَّ شـحن بطاريتـه قـد فضـت طاقتهـا، لـذا توقعتـه مـن أصـول ليسـت عربيـة، ثـم أنـه تكلـم معي الفصحى، حيث قال:.....

- لـــــمممـــاذاااا تأخـــرووواا.....

كأنه لم يتقن العربية، فقلت له:.....

- ما شاء الله أنت تتكلم العربية الفصحى، أين تعلمتها؟

قال:....

- يـــــاااا أخـــــــي اانـــــــاا عـــــــربي مـــــن للبـنـــاان...هههههههه.

صـــرت أضـــحك عليـــه وأقهقـــه؛ حتـــى دمعـــت عينـــاي هههههههه، حيـث فـي المـدة التـي تكلـم بهـا الكلمـة، اسـتطيع نطق ثلاث جمل، فقلت له ضاحكا:..-

- ما بك؟ لم انت بطيء الكلام؟

قال وهو يضحك:..

- لقـد تعرضـت لحـادث، فأجريـت عمليـة فـي الحنجـرة والمريء.

كأني حركت الدم في جسده فصار يضحك ويهتز على ضحكي...هههههه. بصراحة أستخطيته، لكني كنت متعبا، فلم أعر أهمية له، كنت أود أن أشغل بالي بأي شيء لأنسى همومي وهم الهجرة، وخاصة تلك السمراء كانت قد شغلت بالي بجاذبية سيقانها، فصرت أتبع فتنتها بين الفينة والفينة..

ما أن يداعب جفنها الوسن؛ حتى ترتخي عضلات جسدها كغصن ذاو، فتفلج الساقين، فتبدوا الحمامة نائمة في عشها. كانت ترتدي لباس بكيني أسود اللون.... ما أن يرتد لها وعيها؛ حتى تعاود لملمة ساقيها. كأنها كانت تدرك بأن هناك من يتبع مفاتنها.

بعد مدة تجاوزت النصف ساعة عاد الألباني لمقعده بوجهه المتعب، فخطرت في بالي قصة نتيجة الإرهاق الدائب في وجهه.

في البداية لم أكن منتبها على لباسه وعندما عاد لفت نظري تمزقات بنطلونه من موضع الركبة والحجل، وتراخ في لبب قميصه المفلج أزراره، تهجس به بوهيمي المنشأ، حينها قلت لعمر وحاتم وانس الجالسين يميني:..

- انظروا إلى الألباني، لقد ذهب سليما معافى، وحين عاد؛ عاد ببنطلون ممزق وبوجه شاحب وقميص مقطع أزراره، كأنه حين دخل غرفة الفحص، أحدهم بصق بوجه، وما أن التفت عليه حتى صعقه أخر

بعجل على قفاه ليسقط أرضا، ثم سحله الثالث على البلاط ليدلقه خارج غرفة الفحص. هههههه.

هههههههههههه، وما أن أكملت كلامي؛ حتى ضجت القاعة بقهقهة شديدة، صارت الدموع تنهمر من العيون، صرت أضحك على ضحكهم، صار الكل مستغربا، يا ترى ماذا جرى ليغرقوا بالضحك؟ لا يوجد ما يلفت النظر...هههههه..

بعد أن هدئنا بفترة وجيزة جاء الشرطي البدين الضخم مناديا على شاب افغاني، كان الافغاني وهو يمشي إلى جانبه كأنه صعلوك قزم، قُيِدَه من يده ثم سحبه لداخل الممر، فقلت لأنس وحاتم:...

- الظاهر هذا الشرطي لم يفطر هذا اليوم، أخذ الأفغاني يتغدى به.... هههههههههههههه.

هههههههههههه، لم نستطع كبح جماحنا، كأنما انشقت اشداقنا بالضحك والكركرة العالية، شهقت أنفاسنا، صرنا نبكي من شدة الضحك، الوجوه تلتفت علينا، ترمقنا بنظرات استغراب، دون أن تفقه سبب ضحكنا، دون أن تعرف شيئا عن مغزى حديثنا، لأن معظمهم لا يجيدون العربية، كان الموقف يوحي إلينا المشهد دون عناء.

استمر هذا المنوال فترة قصيرة، كأنه نزل وحي الإلهام على فكري، نسينا بها أنفسنا وشزر هم الهجرة والانتظار. كانت الوجبات تذهب للفحص وتأتي متأخرة دون أن نعرف السبب،

حتى فرغت القاعة ولم يبقى فيها سواي والفتاة الالبانية ورجل تركي..

قبل أن أدخل غرفة الفحص جاءوا بوجبة غداء لنا، حينها كنت منهكا من الجوع، فأخذت قطعة خبز إضافية من الكيس، لكن الشرطي الحانق ذات الشوارب الشوكية سحبها من يديَّ، فوجت في سلوكه إهانة لي، واجهته بحفظ كرامتي وبذات الكيفية، دلقت صحن الأكل عليه رافضا أكله، فلم يتأسف أو يتراجع عن موقفه قط، أخذ الصحن والخبز دون أن يلتفت إليَّ، تركني ألوب من الجوع في الصالة ببطني الخاوية حتى جاء دوري في الفحص....

حينها اقتربت الساعة من الرابعة والنصف مساءً، دخلت غرفة الإدارة، اللذين طلبوا مني التوقيع على بعض الاوراق، ثم سألوني أسئلة عابرة، أن كنت أحمل نقودا في جيبي أو جواز سفر وكيف دخلت ألمانيا ولم أخترتها....الخ من أسئلة روتينية باردة تشبه سلوكهم.

بعدها دخلت غرفة الطبيب ليأخذوا عينة دم لغرض التأكد من خلوي من مرض جائحة كرونا، كانت الطبيبة بنفسها تأخذ العينة من المراجعين...

حينها عرفت سر تأخر المراجعين في غرفة الفحص....

وجدت الطبيبة كهلة جدا، شمطاء، كان قد لصغ الجلد على العظم لشدة كهولتها، نحيفة البدن، تعاني من شلل نصفي،

لأنها كانت تزحف بقدمها الشمال. أقدر سنها في التسعين من العمر. كانت بذاتها تسحب عينة الدم، لذا في محاولتين أخطأت العثور على الوريد، صارت تبتسم بوجهي لأستميحها العذر وهي تسحب الدم وتقيس ضغط الدم..

صرت أعاونها على عملها، أربط حزام ضغط الدم على الساعد، وأشد ربله على العضد لينتفخ الوريد ويبان موقعه.. جربت ثلاث وخيزات إبر في ظاهر الكف؛ حتى تمكنت من سحب الدم.. في كل مرة كانت تعتذر مني لرجفة يدها وضعف قواها، فكنتُ أبتسم لها، وأقبل اعتذارها... بعدها خرجت من غرفتها قرابة الخامسة مساءً لأكمل إجراءات الفحص في اليوم التالي.

15- شنيبرغ

بعد أن اكملتُ الفحص الطبي، نقلت لمنطقة شنيبرغ والتي تعتبر أشبه بالمنفى، لبعدها وقسوة تضاريسها، والتي تعني في اللغة الألمانية جبل الثلج، في بادئ الأمر حُجرنا فيها مدة 14 يوما لتكملت أوراق الهجرة في كامب هو جزء من ملحق عسكري تابع لكلية الشرطة، ثم بعد التوزيع أعادونا لنفس المكان لنمكث فيها مدة ستة أشهر أخرى.

هجست الأيام اضحت أكثر ثقلا من أيام السويد، لعجرفة الألمان وجلفهم في تعاملهم وقسوة قوانينهم المشددة، حيث نادرا أن تجد من يبتسم في وجهك إلا ما ندر، وكأن الذين يتعاملون معهم ليسوا بشرا، أهجس بهم أحجار تتحرك بهيئة بشر، لا روح ولا فتنة في تعاملهم، هم يمكثون في واد ونحن في واد آخر. هم هكذا مسيرون بقوانين لا رحمة فيها.

تلمسنا ذلك الجفاء حتى عند سواق الباصات، تهجس بأعينهم غصة تجاه الغرباء، ربما بسبب عقد قديمة شاخصة في نفوسهم، خاصة كانوا قد عاشوا حقبة طويلة تحت حكم الروس، فأخذوا منهم قسوة الطباع والجفاء.

كامب شنيبرغ أشبه بسجن خال من كل بهجة ومتعة، لا تلفاز يشغلنا، ولا نت يسلينا، ولا مطابخ أو ملاعب رياضية، إضافة إلى موقعه البعيد جدا عن مركز المدينة، بنايات قديمة مخصصة لمنام تلاميذ صنف الشرطة لتدريبهم وتهيئتهم،

ليكونوا ضباطا وقياديون في الدولة، هذا المبنى مؤجر من قبل دائرة الهجرة.

المبنى مسيج من كل جوانبه بشبكة عالية محكمة من شبك الحديد، كالذي يحجز به الحيوانات المتوحشة، الثكنة تبعد عن مركز المدينة مسافة أربعة كيلومترات، مبنية فوق قمة هضبة قريبة من حدود الجيك، فيما أبنية المدينة منتشرة على السفح الهضاب وفي منخفض الوديان، المنطقة معرضة لتقلبات قسوة الطقس الدائمة، الثكنة أشبه بمنفى، معدة لتعليم منتسبي الشرطة الصبر والتحمل.

في هذا الكامب قضينا فترة الاعداد.. كانت وجبات الفطور والعشاء فيه مختصرة على قطعة جبن وملعقة مربى وصمونة صغيرة وعلبة حليب أو عصير صناعي.. الروتين في كل شيء، كان قد عمق فكرة الفراغ واليأس في عقولنا، وإذا ما سألت من أحدا من الذين يشاركني الكامب وعن كيفية قضاء وقته؟ تكون الإجابة:.... النوم.

تهجس بهم وكأنهم قد عُجِنَوا بغراء الكآبة والألم، دون أن يتمكنوا من تغيير شيء من منهج حياتهم، وخاصة فترة انتظار الفرج للبعض طويلة وبالذات للعزاب، قد تتجاوز السنة. ذلك ما ولد انفجارا لدى المتواجدين وبالذات مع الفئة الشبابية من الذكور والإناث.....

ما لفت نظري هو أنَّ أحد الحراس كان جائعا فأخذ علبة من وجبات الغداء الفائضة!! ما أن شاهده المشرف الألماني؛ حتى

وبخه على فعله آخذا العلبة من يده ليرميها في المزبلة، محذرا إياه من تكرار الحالة... ما حيرني هي القسوة المستخدمة في طريقة تعاملهم فيما بينهم ومع الآخرين، حينها وجدني مستغربا من سلوكه، فقال لي الحرس:..

- لا تستغرب؛ هذا هو تطبيق البيروقراطية، تطبيق اعمى للقوانين بحذافيرها دون نقاش وتفكير، دون مراعات الجوانب الأخلاقية والانسانية. أنهم يرمون المواد الفائضة من المؤن على المزابل دون أن يسمحوا لأحد ما الاستفادة منها، حتى الفقراء. لذا تجد الشخص يحاسب أذا أخذ بيضة أو شريحة خبز فوق نصيبه.

حينها تذكرت ذلك الشرطي الذي منع عني قطعة الخبز، والذي أخذ الصحن من أمامي دون أن يأكله ليرميه في النفايات. بذلك السلوك هم يقطعون دابر فرص الاستغلال، وأن كانت صغيرة. حيث في ظنهم الأمور الصغيرة تكبر مع مرور الزمن، فتتحول لممارسة ونية وجشع تشجع على الفساد، عندها لا يمكن السيطرة على الفجوة إذا ما كبر شرخها.

لذلك هم يلتزمون بهذه المبادئ بشكل أعمى دون النظر إلى حيثيات النتائج ولا يلتفتوا إلى مغزى الإنسانية التي توجب الرأفة والرحمة بين البشر.

في تلك البقعة أهجس بالفكر قد توقف عن ممارسة هواياته وغوايته تماما، بات يزحف في غيٍ على منحدرات الذات دون

أن يرتقي قدره. هكذا بتُ أبحث عن صيغة تنتشلني من الاغتمام والاكتئاب؛ حتى أني كرهت نفسي ويوم إقرار قدومي لألمانيا. تملكني أحساس بأني معاقب من الذات والالمان والله على أتخاذ قرار الهجرة.. كنت أهجس بذاتي مسجونٌ في سجن مفتوح دون أن استطيع تخطي اسواره..

ذهبت لمدينة كيمنتس لغرض الفحص والاستطلاع، خلال رجوعي ركبت باص 361 والذي لم أكن قد جربته سابقا، وهو يصل لمدينة **آوه** التي تبعد عن ناحية **شنيبرغ** خمسة كيلومترات، اكتشفت بأن الطرق التي تسلكها عجلة الباص 361 تختلف عن التي سلكناها أول مرة، حيث مرت العجلة على كل القرى المحصورة بين كيمنس ومدينة آوه، والتي تزيد عن عشرة قرى متناثرة في الوديان والمرتفعات.

في هذه الرحلة اكتشفت الطبيعة الجميلة التي مر بها الباص ومكامن ومعادن الفتن والجمال لدى الفتيات القرويات، التمست جيناتهن الخالصة، كان الباص قد أمتلأ عن بكرة أبيه بالفتيات، يتقطر منّهنَّ الشهد والجاذبية لما يحملنَّ من سحر وعذوبة خالصة. لمستُ فيهن الفتنة والطراوة الغريبة ببشرتهن والألق في شعورهن المذهبة والرفعة بزرقة الأعين وملاحة الوجه وحسن القوام وفتنة الملامح، كل شيء فيهن يشهد بالأصالة، جواهر من عقيق وماس وزمرد وتوباز، شعور من سندس واستبرق، تهجس بهن كشدة ورود عبقة، وكأنهن يحتفظن بغر تلك السلالة الرقيقة المصفاة من

الشـوائب، ربمـا لأنهـن بطبـاع العـرف والتقاليـد احـتفظن بغـرة الأصل، هن قرويات لم يختلطن بأجناس أُخَرْ.

المهم جلستا قربـي فتـاتين تشـعان فتنـة وجمـالا، كقمـرين دارا فـي فلـك ظنـي، لشـدة مـا يحملـن مـن سـحر يعصـف بطـراوة الجسـد، أحـداهن نحيفـة كغصـن بـان تتصـف بالسـكينة والهـدوء، والأخـرى ريانـة، مربوبـه، ثرثـارة.... التنـاقض واضـح بيـنهن تمامـا فـي الشـكل والهيئـة والطبـاع لا أعـرف كيـف اتفقـن علـى الصـداقة... فتنـتُ بجسـد الريانـة وعشـقت طبـاع وملاحـة ملامـح النحيفـة، لأنـي وجـدت فـي فتنتيهمـا شـيء مـن فتنـة وألـق زوجتـي، بـل وجـدتهما تضـاهيها حسـنا وجاذبيـة، فصـرت أسـترق النظـر إليهمـا كلمـا لاحـت لـي فرصـة. تأملـت هـدوء النحيفـة التـي نقلتنـي إلـى وهـدت الرجـاء، غـررت فـي عصـف فتنـة رقبتهـا المزدانـة سـحرا وجاذبيـة، سـحرتني رقـة إذنيهـا وإطلالـة قُرطهـا الفضـي المتـدلي علـى العنـق، فيمـا تُحلِـقْ رقبتهـا قـلادة فضـية، كأنهـا أضـفت علـى القـلادة فتنـة مـن سـحر عنقهـا، فـزادت جاذبيـة ورفعة.

فيمـا كانـت رفيقتهـا وكأنهـا جزلـت ذلـك السـحر المكنـون فـي فتنـة الجسـد والوجـه بشـفاطة ثرثرتهـا، وكـأنَّ السـمنة قـد أكلـت شـيئا مـن حسـنها، والثرثـرة أحرقـت جـلَّ مفاتنهـا، أخفـت معلـم الأنوثـة والألـق والحُسـن مـن الوجـه بوشـاح مـن قـبح الصـوت الملعلـع.. مـا أن جلسـنَّ بقربـي؛ حتـى صـرت أسـمع دوشـة خرشـت طبلـة أذنـي، كصـوت محـراث التركتـور، حيـث لـم تبطـل زعيـق ثرثرتهـا طـوال مـدة سـاعتين مـن المسـير، فلـم يهـدأ البـاص حتـى

نزلت في قريتها قبل أن نصل مدينة **آوا** بخمسة دقائق. نزلت وبقي طنين ثرثرتها يدور في صوان أذنيَّ، خلال الرحلة بقيت ثرثرتها تتلقف المواضيع الواحدة تلو الأخرى دون أن تتوقف لحظة واحدة، كأنها شريط مسجل، أظنها كانت لا تتنفس خلال الطريق وهي تلقف المواضيع. ما كان يحزنني هو عدم فهمي للغة وما تقول، ظلت ترطن أذنيه بلغتها دون أن أفقه شيء مما تقول، فيما كانت زميلتها النحيفة أشبه بالورقة الذابلة، لخجلها منها وللدوشة التي صعقت ذاكرتها، حيث كانت تجاملها باستيحاءً، تهادنها بابتسامة أو بهز الراس، وأحيانا تسمعها كلمة أو كلمتين، وأحيانا تجاملها همسا؛ حتى أني لم أسمع لها صوت يَقدح.... بينما كانت ثرثرة البدينة كصنبور الوسخ تفجر في ذهن زميلتها، عثنت فمها بقبح الصوت لتصيب ذاكرة رفيقتها والركاب بغل الكلم.. لم تغلق فمها قط، لم أهجس بالهدوء والراحة حتى نزلت في قريتها. لقد أغضنت الجميع بثرثرتها، لم أنجي ذاتي من لعلعة الصوت المرتفع؛ حتى بعد أن غيرت مقعدي بعد أن فضيت بعض المقاعد الامامية.

كأنها لافت طيبة صديقتها والطريق الطويل والركاب تحت سَمّج ثرثرتها، جعلتني أكره جنس النساء قاطبة، ظل نزق صوتها يخق في طبلة أذني كارتداد صوت الصفيح بعد الطرق، لصدا صوتها الناشز وهو يدور في فلك الباص حتى بعد نزولها..

مـــا أن نزلـــت حتـــى تتبعـــت خطواتهـــا وهـــي تســـير بمحـــاذاة الرصـــيف، هجســـت بجســـدها البهـــي، كأنـــه شـــعلة تســـتنطق الرصـيف تحـت غشـاء الغسـق، لسـحره ولجميـل القـوام والمفـاتن. كانـت ترتـدي بنطلـون جـنس أزرق مـع قمـيص فضـفاض أبـيض. وأظـن بطابعهـا الثرثـار لـن يحتملهـا رجـل إطلاقـا. حمـدت الله بـأن زوجتـي لـيس فيهـا مـن صـفاتها شـيء سـوى جمـال البشـرة وقـوام الجسـد، بـل بـالعكس فهـي تحمـل سـمات تلـك النحيفـة مـن هـدوء وكياسة ورقي، ذاك ما يشع في صفاتها ويزيدها ألقا وفتنة.

لقد وجدت الفراغ في المانيا أكثر عمقا وخطورة من ذلك الذي واجهتـــه فـــي أجـــواء الســـويد المتجلـــدة، المـــوت البطـــيء صـــار يزحـف علـى الجسـد أشـبه بالغرغرينـا، العقـد زاحمـت الأحـلام، جردتنـي مـن النشـاط والتأمـل، كـأنَّ حـوض الفكـر شـف مـن مـاءه، تغيـرت الصـفات، صـار تعامـل الفـرد مـع محيطـه كتـأثير الشـوكة فـي البالونـة، لا يـود أن يغـوص بـأي منفـذ، همـه فقـط الـتخلص مـن فيض الجنون المحيط به، وهو قابع في ركنه كالحجر.

ذلـك مـا دعـاني اتصـل بزوجتـي كلمـا سـنحت لـي الفرصـة، لأبعـد عـن الـذات صـفة التجلـد، لأنـي أهجـس بهـا كحبـل نشـر الغسـيل أنشـر همـومي علـى عاتقهـا، لتحمـل عنـي بعـض أرقـي وشـتاتي... كانـت هـي الأخـرى منشـغلة فـي مجـال المدرسـة ومشـاكلها وعقـد التلاميـــذ التـــي لا تنتهـــي مـــن درجـــات ومســـتويات ولقـــاءات وتخـاطر وسـفريات ...الـخ. اتصـلت بهـا مسـاء متـأملا أن تكـون بأتم الصحة:....

- ألو

- هلا يا عمري..
- اشتقت اليك ووددت إزعاجك قليلا....
- أجمل إزعاج الحبيب لحبيبته.....
- الفراغ هجم عليَّ وجعلني مجنونا في غي لا استطيع التخلص منه، أجد ذاتي مسجونة في هذا الكامب، تجردنا من كل شيء ربما سنجرد من العقل الذي بات يُسف مع تواتر الأيام، ولا أدري كيف تقضين فراغك؟؟؟
- أي فراغ، أنا في رأيي الفراغ هو من بُدع الإنسان، فليس هناك شيء أسمه فراغ، تراني أشغل ذاتي بأمور البيت والمدرسة والأطفال، وعندما اشتاق لك، أضع اشتياقي في فريز النسيان...
- الفراغ موجود، ربما عندك ذائب بالعمل، هو من صناعة الظرف، خذي ظرفنا مثلا كنموذج، نحن نعيش في غرفة فوق الجبل دون نت وتلفاز وعمل، كأنهم بذلك عزلونا عن العالم، وضعونا في سجن داخل سجن. الكامب مسيج بسور حديدي، والثلوج من حولنا بارتفاع قدم، تمنعنا من الحركة والنزول للمدينة. تصوري؛ أقرب بقالة تبعد عنا ثلاثة كيلومترات. لذا بعد استيقاظنا نعود نحتضن الوسادة مرة أخرى، صارت الوسادة حبيبتنا، والسرير شريك حياتنا.....
- هههههه، تأدبوا..... أما أنا؛ أن وجت فراغا في حياتي أكشه بالأشغال، أكنس البيت، أرتب البيت، أتصفح النت، أشاهد فلما ما، أصبغ أحذيتي وشعري، أمسح

نوافذ الغرف، وبتلك الأعمال أشغل نفسي حتى يغلبني النعاس. لا تعتقدْ لا أفكر فيك، لكني أعتبر الحالة طارئة وأن طالت مدتها.

- جميل جدا، أبقي على هذه الشاكلة لأن الفراغ قاتل، وكوني على أتصال دائم معي، لتشغليني وتشغلي ذاتي بك وذاتك بي..
- وهو كذلك يا حبيبي، مع السلامة.

16- مراجعة طبيب

كان الخامس والعشرين من آذار عام 2021 يوماً مشمساً، دافئاً، يحمل في طياته نقيض ما كنت أشعر به داخلياً. ذلك اليوم صادف موعد زيارتي للطبيب، لمراجعة حالتي الصحية التي بدأت تتفاقم، لا لخطورتها، بل لما تثيره من قلقٍ ورتابةٍ تنغص حياتي، وتُحيل فراغي إلى هاوية من الهواجس. لم تكن الحالة مخيفة، لكنها تحولت إلى عبءٍ ثقيل، يتغذى من وحدتي بعد فراق زوجتي الحبيبة، ويشتد وطأه كلما مرّ الزمن.

صار ضغط الدم يشتط في جسدي، واختلت لديّ حالات التبول، حتى غدت غير إرادية، تداهمني على حين غفلة، خصوصاً في فصل الشتاء. عزوت ذلك للقلق، للهوس، للتفكير المستمر بها. قلّ نومي، ذبل جسدي، فقررت أخيراً أن أضع حداً لتلك المعاناة، وأن أزور الطبيب في مدينة كيمنتس، التي تبعد عن بلدتي شنيبرغ نحو أربعين كيلومتراً.

ركبت الحافلة في العاشرة صباحاً، وكان علينا المرور بمدينة آوى. هناك، صعدت فتاة رشيقة، لماحة، ذات أناقة آسرة ووجهٍ يفيض بالجاذبية. ما إن رأيتها حتى شعرت بذهول، إذ بدت لي نسخة طبق الأصل من زوجتي، في ملامحها، في طلتها، في فتنتها. جلست قبالتي، لا يفصلنا سوى مقعد واحد، شغلته امرأة مسنة.

لـم يكـن الشـبه فـي الملامـح فقـط، بـل فـي الحركـات، فـي البسـمة، فـي النظـرة، فـي العفويـة. خُيّـل إلـيّ أنهـا زوجتـي متنكـرة، بشـعرٍ مسـتعار، وعدسـات ملونـة، وبشـرة مختلفـة. لكـن تلـك الشـامة علـى حنكهـا الأيمـن، كانـت الـدليل الـذي لا يُخطـئ. كيـف يمكـن أن تكون مصادفة؟! لا، لا وألف لا... إنها هي!

غلبنـي الشـك، وتـاه عقلـي بـين اليقـين والحـدس. صـرت أتمعـن فـي تفاصـيل وجههـا، فـي شـفتيها، فـي وجنتيهـا، فـي أنفهـا الشـامخ، فـي كـل مـا يـذكرني بزوجتـي. النسـاء اليـوم يصـنعن المعجـزات فـي صـالونات التجميـل، يغيـرن كـل شـيء، حتـى أن الرجـل قـد لا يعرف زوجته إن خرجت من هناك.

انغمسـت فـي خيـالي، تخيلـت نفسـي أحتضـنها، أقبلهـا، أذوب فـي فتنتهـا، حتـى نسـيت كـل مـن حـولي، نسـيت الطريـق، نسـيت المـرض، نسـيت الزمـان والمكـان. كنـت أبحـر فـي وجههـا، كـأنني فراشـة تمـتص رحيـق زهـرة التوليـب، أرتعـش فـي حضـورها، أصـطلي بنـار جمالهـا، حتـى امتـدت شـفتاي نحوهـا، لتطبـع قبلـة الحياة على وجهها... ثم أفقت.

مـا أن دخلـت فـي أتـون السـهو والسـهاد، وقبـل أن تطبـق شـفاهي علـى تلـك الشـفاه؛ فـي تلـك اللحظـة الحرجـة والمراقـة مـن الحلـم وأنـا اتبـع الشـغف اللاعـج فـي قلبـي ومخيلتـي... أقـول فـي تلـك اللحظـة السـعيدة والعسـيرة فـي نفـس الوقـت؛ كانـت قـد لسـعتني بعوضـة مـن سـاعدي الأيسـر، جعلتنـي أجفـل لشـدة الالـم الـذي أراقتـه فـي موضـع اللسـعة.. ودون شـعور منـي صـفعتُ سـاعدي الأيسـر بكفـي الأيمـن بقـوة، مـا أدى إلـى أنتبـاه الجميـع علـى

صوت الصفعة. ما أن رفعت رأسي؛ حتى وجدت في حدقاتها نظرة تأسف، لا أدري أن كانت قصدت سوء تصرفي وانحداري إلى عالمها الثاني، أم رأفت بها على حالي لشدة اللسعة.

تلك البعوضة الصغيرة، كأنها جاءت من عالمٍ آخر، سرقتني من خيالي، من تلك السكرة التي كنت أسبح فيها، وأعادتني دفعة واحدة إلى عالمي الحقيقي، إلى وضعي الطبيعي، بعد أن اختطفتني نشوة الخيال إلى سعادةٍ مرجوة، كنت أبحث عنها بشغف في ظل الفراغ الذي ينهشني. وكأنها أبت أن ألوك شفاهي بتلك الشفاه الوارفة، فغرست لسعتها في جلدي، فأخذت أحك موضعها بشدة، حتى كاد الدم أن ينزف من فرط الألم.

لا حكم لي على تلك البعوضة، لمَ اختارت تلك اللحظة بالذات؟ لحظة اندماج الروح بالسر الإلهي المراق على شفتين من نور، كأنها وحيٌ مرسل، جاء ليقول لي: "كف عن تطفلك يا مراهق، تحلَّ بالاتزان، لا تتهكم، ولا تتصرم في سلوك عبثي". فعدت إلى طبيعتي، متلفتًا يمينًا وشمالًا، أبحث في وجوه الركاب عن أثرٍ لما جرى، لكن الجميع كان غارقًا في همه وبحار هواه، لا أحد انتبه، لا أحد رأى.

وبعد هنيهة، عدت إلى شرودي، إلى خيالي، إلى تلك اللعبة التي كنت أزاولها مع نفسي، لعبة التحدي مع تلك الفتاة التي تشبه زوجتي حد التطابق، والتي أيقظت نار أشواقي، وأعادتني إلى زمنٍ كانت فيه زوجتي ركناً من أركان حياتي، لا تغيب عن الذاكرة ولا القلب.

تبـع الفكـر نظـرات العـين إلـى حقولهـا الخضـراء، إلـى ملامحهـا التــي لا تخطئهــا عــين، إنهــا حقًــا ملامــح زوجتــي، وهــل أغفــل عنهـا؟ غيـر أنهـا أرشـق قلـيلاً، أكـاد أقـبض علـى خصـرها بكـف واحـدة. حـين تبتسـم، تكـاد شـفتها تغطـي وجههـا لنحافتـه وضـمور خديـه، لكنهـا تملـك عيـون زوجتـي، أنفهـا، شـامتها، شـفتها... تلـك الشـفة التــي طالمــا أغرتنــي، فحسـبتها هــي، ربمــا نحفـت بفعـل الفراق، أو شدة التفكير بي، أو عجاف العزوبية.

عـدت للفضـول، لأنغمـس مـن جديـد فـي بحـر الخيـال، لأغـور فـي عـالم سـحرها، لأغـوص فـي متاهـة تلـك الشـفاه الندیـة، المغنجـة بالجاذبيـة، بلونهـا القرمـزي المقتضـب، كأنهـا فـص عقيـق مشـبع باللدانــة والرقــة. صــرت كالمســتجدي، أتأمــل أن أنــال قبلــة، ولــو خيالاً، من تلك العناقيد المتدلية من كروم الفتنة.

مضــيت علــى شــاكلتي الأولــى، أبحــر فــي شــواطئ بحرهــا، هجسـت أن تلـك الشـفاه لا تنفـك عـن عـالمي، بـل تـدعوني لعالمهـا، تقتــرب منــي بقــدر اقترابــي منهــا، وكــأن بيننــا حثًــا كهرومغناطيسـيًا، انجـذبنا نحـو بعضـنا، صـرنا قطبـين متجـاذبين، مختلفين في الشكل، متشابهين في اللهفة.

تكـوّرت الفكـرة فـي ذهنـي، تلفـظ نـار الوجـد فـي صـدري، وددت أن أقتلــع تلــك الشــفاه مــن وجههــا لأضــمها إلــى فمــي، صــرنا نتجـاذب الرغبـة والغـنج، حتـى صـارت شـفتي تبحـر كموجـة نحـو شـاطئ شـفتها، تتهـادى فـي صـبابة نحـو الموقـد المتقـد، تـود أن تـتحطم علـى شـاطئها. تمطـت بهـا الرغبـة إلـى جوفهـا، هجسـت

بعطب في اللهفة، بدا دخانها يتراقص أمام عيني كثعبان الكوبرا، يميل مع شطط الآهات النافذة من حشا الفؤاد.

وما أن دنت لحظة الاندماج بين المشاعر والهواجس والشفتين لحدود شعرة، حتى صعقتني العجلة بزعيق زمارها الموحش- طـــــــــاط- دعسة مفاجئة على المنبه، أيقظتني من نشوتي، حين اجتاز السائق منعطفًا ضيقًا بسرعة ورعونة، كاد أن يودي بنا إلى وادٍ سحيق، لولا رحمة الله.

هجست به كأنه كان يراقبني من خلال المرآة العاكسة، دعس على الزمار وكأنه يوجه لي تحذيرًا، يقول لي: "كف عن التبجح، لا تتجاوز حدودك، لا تقتحم حرية الآخرين". كأنه توجس نية سلوكي الجانحة، المراهقة، فصعقني بصوتٍ مدوٍّ، أعادني إلى الواقع.

صرت أسأل نفسي: هل هي فعلاً ساحرة؟ هل هي بشر؟ ففي المرة الأولى غلبتني بعوضة، وفي الثانية أقلعني زمار العجلة. أكاد أشك أنها ليست من هذا العالم...

أهجس بها، تحمل بين كتفيها آية من الرحمن، تحميها من الوحوش الكاسرة، حتى في لحظات السهو والخيال. تيقنت أنها مُسيَّرة ومأمورة، فإما أن تكون ملاكًا طاهرًا، أو زوجتي متنكرة، أو شيطانًا في هيئة بشر. وإلا، فما سر تلك الحوادث التي تمنعني من تخطي حدود الأدب معها حتى في خيالي؟ هل لأني أخالف حدود الشرع؟ أم لأن سلوكي منحرف أمام المجتمع؟

كنت وحيدًا، أتخور في عالم الغياهب، أبحر بقارب من هوس الجنون، من نسيج الحب والخيال، ساعدني على تخطي عجزي لأصل شواطئ عينيها وضفة شفتيها، بشغفي وهيامي بها.

ترى، هل اقترب أحدهم من عالمها كما فعلت؟ هل أخبر أحدهم السائق بما يجول في خاطري ليحميها؟ ربما الكل تخيلها زوجته، الكل شاركني رغبتي، الكل حاول الوصول إلى شواطئها بذات السرعة التي عبرت بها مفازة عجزي وقفار أشواقي، فما كان منها إلا أن تنبهت، فأوقفت السائق همجيتنا.

بقيت أفسر سر التشابه الكبير بينها وبين زوجتي دون جدوى. هل فعلاً خلق الله من الشبه أربعين؟ إذاً، من الإنصاف أن أتزوج الأربعين المتشابهات، لأني أغار على زوجتي، ولن يختزل حبي لها قيد شعرة، ولن أسمح لأحد بالعبث بها ولو بنظرة.

هكذا أردتها، وهكذا تعلقت بها، رغم الفراق الذي حال بيننا دون إرادتنا. شعرت أني أحق بها من الجميع، أحق بتلك الفاتنة التي تجلس قبالتي. ما الذي دفعها إلى ذلك المقعد؟ لا بد من سر خفي، سر يجمعنا، جعلها تركب ذات الباص، تجلس وجهاً لوجه أمامي، حتى تقيدتُ بمحاسن فتنتها.

أنا لا أؤمن بالمصادفة، فحين أكون بكامل قواي العقلية، لا تكون المصادفة إلا خيطًا من خيوط الأسرار الغائرة في ما

وراء الطبيعة. جعلت عجلة الحياة تسحبها من واقعها الرزين لترميها في حوض واقعي العبثي، لتحملني رزء تلك الفتاة أو تكشف لها سري.

قررت، إذا ما توقفت العجلة، أن أتقدم لها وأصارحها بكل ما اختلج الفؤاد من لاعج وعاطفة. ترى، هل لمحت إعجابي بها؟ أهجس بها تعيش في عالم آخر، عالم يفيض بالأشواق والحنان، بعيد عن عالمي الرمادي. لذلك، كان علي أن أبقى بعيدًا عن المحيطين بي، لأنغمس في أتون عالمها مرة أخرى، متمسكًا بخيط الخيال الذي يرشدني لشواطئ شفتيها، لأتبع ضوء الفتنة عن قرب، لأركب صهوة جواد القلب، متبعًا صهيله الذي سيوصلني إلى قلعتها بشيء من الحذر والتبصر.

قطعنا شوطًا طويلًا من الطريق، دون أن أهجس بالوقت المهدور بيننا. التفت يمينًا وشمالًا، لأنسل من قبضة المحيطين بي، لأرجع باشتهاء لعالم الخيال الواسع. وجدت الكل منشغلًا بذاته، ربما غصوا بفتنتها، أو بعالم أزواجهم، أو بكأس النبيذ المتخمر في وجوههم.

لشدة ولعي بها، صرت لا أعير أهمية لمحيطي، كأني تجاوزت حدود الأدب والمنطق، لأنها في نظري زوجتي، ولي الحق في مغازلتها. لمحت في وجنتيها شعلة تضيء جدران الخيال، أحاطت الشفاه بومضة خافتة من ضوء قنديلها، أضحت كثمرة ناضجة تخفق في الغصن، كقمر يسطع في الليل.

هـي لا تختلـف عـن زوجتـي سـوى بلـون البشـرة ونحافـة البـدن، فلـو وضـعت شـيئًا مـن الأسـاس علـى سـمارها، لتكـون هـي بعينهـا. أشك بلون عينيها، وأظنها عدسات موضة.

عـاد بـي الخيـال لواحـة الغـزل، لحالـة التسـامي والانصـهار، للملاحـة فـي ذلـك الوجـه المنبسـط، متـأملًا تلـك الشـفاه الغضـة. حاولـت أن أغمـض عينـي لأكـون قريبًـا منهـا، لأتحسـس جلـد الجاذبيـة، لأشـعر برقـة تلـك الشـفاه، لأغـوص بفـج الفتنـة وحيـدًا، كما تفعل النعامة حين تدفن رأسها في الرمل هربًا من العدو.

تخيلتهـا زوجتـي، تتحـرك أمـامي، تبتسـم لـي، تضـحك علـى قـدري، علـى شـدة ولعـي بهـا، كأنهـا أدركـت نجـواي وهيـامي بهـا. حتى أني شككت بأنها زوجتي الحقيقية، تتلاعب بمشاعري.

فتحـت عينـي للحظـة، فوجـدت وجلـي وهوسـي يسـيح كرغـاء زبـد البحـر علـى شـواطئ شـفتيها. ومـع أنـي فتحـت عينـي، إلا أنـي لـم أغـادر سـقف الخيـال، بقيـت أتـأرجح بـين وجـه الفتـاة ووجـه حبيبتـي كبنـدول الـزمن، طارقـا ذاتهـا بنـاقوس أشـواقي، أغمـض عينـي تـارة وأفتحهـا تـارة أخـرى، لأتـأرجح بـين الحقيقـة والخيـال، أغتني بسعادة آنية وأنا ألتقي زوجتي عبر مجسات التخاطر.

هجسـت بالـذي يجلـس بجـانبي وقـد انغمـس بوحـل الوسـن، أسـمع شـخيره يطـرق مسـمعي، بينمـا كنـت أهـرب مـن عـالم الـوهم لعـالم الثبـات. أرى الـذي يشـدني إليهـا هـو خـيط نـور يختـرق سـدم الفراغ، يرسم قبلة حياة على تلك الشفاه.

ومـع درجـات التـأني، كـدت أصـل شـواطئ قلبهـا، أرى الضـوء المشـع فـي شـفتيها يجـذبني كفنـار السـفن، يزهـق أرقـي وهـواني بلهفـة. أضـحت تلـك الصـورة تلتصـق علـى صـفائح الظـن كجمـرة عابثـة، تلسـع يقينـي. انغمسـت بأنفاسـها وبلـون فتنتهـا، هجسـت بهـا تشاطرني الرأي والرغبة.

مـا أن ولجـت ذاتـي بعالمهـا، حتـى أدركـت لحظـة قطـف درتهـا، تلاشـت المسـافات، صـارت تقتـرب مـن الصـفر، صـرت أتحسـس أنفاسـها وطـراوة بشـرتها، أتشـوق لهـا، ألهـث خلـف محاسـنها، هجست بروحي ترتع بأساس بشرتها، تغدق بمفاتنها...

وقبـل أن تمـيس شـفتي زبـد شـفتها، وأنهـي فصـل تلـك الـدراما، دعـس السـائق علـى نـابض الوقـوف، اهتـزت العجلـة، وكـدت أن اصـطدم بـالعجوز القابعـة أمـامي، لـيعلن انتهـاء مشـوار الرحالـة. ارتجـت أعصـابي مـع ارتجـاج العجلـة، وهـي تقـف فـي محطتهـا الأخيرة...

صـحوت مـن غفـوتي، مشـدوه البـال، مشـتت الفكـر، عينـي تـدور في أروقة الفتاة، أيقنت أنها محمية بسر إلهي.

غـادرت العجلـة، تبعتهـا، كـل أملـي أن أفضـي لهـا مشـاعري. وقبـل أن أربـت علـى كتفهـا، أرتمـت فـي حضـن شـاب وسـيم كـان ينتظرها في موقف الباص...

عنـدها توقفـت عـن شـرودي، عـدت خائبًـا إلـى عـالمي الحقيقـي، أجـر خطـى المـرارة، متجهًـا إلـى عيـادة الطبيـب. أمشـي، وتلـك

الصـور تتقلـب فـي ذهنـي، بشـيء مـن الحسـرة والألـم، كشاشـة تلفـاز تعيـد تسلسـل الأحـداث، مـن لحظـة ركوبهـا العجلـة، إلـى لقائهـا بـذلك الشـاب الوسـيم. أعـيش أدوار اللحظـات وأنـا مأسـور، عائد إلى ساحة الفراغ التي وددت أن أهرب منها.

17- البار

مشهد البار: حين يتسكع القلب في دروب الذاكرة

خرجت من العيادة كمن نجا من موتٍ مؤجل، لكن النجاة لم تكن خلاصًا، بل بداية تيهٍ جديد. نصائح الطبيب كانت واضحة: غيّر نمط حياتك، تحرّك، سافر، اقرأ، أحب، تنفّس... لكنني كنت كمن يجرّ جسده في الشوارع، لا يملك من أمره شيئًا سوى ذاكرة مثقوبة، وأفكار تتناسل من بعضها كأشباح الليل.

الشمس كانت ساطعة، والناس تمضي في الأسواق كأنهم يعرفون وجهتهم، أما أنا فكنت أجرّ خطواتي كمن يسير في حلمٍ ثقيل، لا يدري إلى أين، ولا لماذا. فجأة، طفت على سطح الذاكرة صورة حبيبتي، كوميضٍ خاطف، كضوءٍ مراهق تسلل من نافذة القلب، فاض بي الشوق، وتبعثر وجهي في ملامح كل امرأة مرّت بجانبي، كأن دخان الحنين يتصاعد من أنفاسي ويشي بجنوني.

في لحظة ضعف، وجدت نفسي أمام باب بارٍ صغير، لا يحمل من الفخامة شيئًا، لكنه بدا لي كملاذٍ مؤقت، ككهفٍ أختبئ فيه من ضجيج الذاكرة. دخلت وأنا أجرّ خيبتي، لا أبحث عن نشوة، بل عن نسيان. لم أكن أعرف تقاليد المكان والشرب والسكر، ولا أعراف السكارى، كل ما لديّ هو صورٌ من أفلامٍ قديمة وتجربة يتيمة لا تصلح أن تكون مرشدًا.

جلست في ركنٍ قصيّ، على كرسي خشبي ومنضدة زجاجية، تحت أضواء فلورسنتية خافتة، والجدران مكسوة بأقمشة قطيفة حمراء توحي بأجواء مسائية، كأنها تحاول أن تخلق وهمًا من الألفة. الصمت كان يصفّر في الأرجاء، والذاكرة تعجّ بالضياع.

جاءني النادل، وتحدث بلغة لم أفهمها، لكنني لفظت كلمتين: "ويسكي" و"بيرة". فهم المغزى، فالألم له لغة عالمية. عاد بعد دقائق، يحمل صينية صغيرة، عليها كأسٌ من الويسكي، وآخر من البيرة. وضعت يدي على الكأس، كمن يضع يده على جرحٍ قديم، وارتشفت أول قطرة، لا لأجل الطعم، بل لأجل أن أزيح عن كاهلي عناء اليوم، وأغسل بالسكر ما علق بالروح من تعب.

في تلك اللحظة، لم أكن سوى ظلٍّ يتسكع في دروب الأشواق، يبحث عن ذاته في زجاجة، عن خلاصٍ مؤقت، عن نسيانٍ لا يدوم. كنت أظن أنني أغيّر نمط حياتي كما نصح الطبيب، لكنني كنت أمارس نوعًا آخر من التغيير... تغيير عبثي، لكنه الوحيد الذي استطعت أن أحتمله.

كأس من الويسكي وقارورتي بيرة وصحن من النقل.

صرت أحتسي الشراب دون أن أبالي بمن حولي، كأنني أخلع عن نفسي عباءة الحذر، وأرتدي قناع اللامبالاة. بل وجدتني أقلد الجالسين في ارتشاف الكأس الأول، كأنني أتعلم طقوسهم في التوحد مع الكأس، في الانفصال عن العالم. ومع اندماجي

في الشرب، هجستُ بوجود شرطي أو حارس للبار يراقبني، خُيّل إليَّ أنه واقف أمامي عند المدخل، يحدّق في سلوكي وتصرفاتي بقصدٍ مريب، كأنما يشك بي، ربما لأنني غريب، وربما لأنني لأول مرة أدخل هذا المكان.

تسللت إلى ذهني فكرة أنه جاء ليراقب عبثي، يبحث عن أسراري كمخبرٍ متخفٍ، ما أزعجني أنه يراقبني دون الآخرين. في وجهه علامات فارقة، كوجه مجرمٍ مشفّرٍ بمطواة، وجهٌ جهم، ناشف، خالٍ من الرحمة والمغفرة، فيه مجانة وعنف وصلافة. بقي واقفًا في مكانه كعمود نورٍ بوجهٍ شيطاني، لطوله الفارع وضخامته، ظننته شيطانًا يراقبني وحدي، يبحلق في وجهي، وفي عينيه نظرات شزراء وأنا أحتسي الخمرة.

بتُّ أنظر إليه بين الفينة والأخرى بوجس، أهجس بشعلة غضبٍ تنفر من منافذ وجهه، لا أدري لماذا يراقبني، ربما كان موجهًا من صاحب البار، فالسكيورتي عاملٌ بأجر لاستتباب الأمن، لكن بصراحة، انزعجت كثيرًا من وجوده، من تتبعه لتصرفاتي في مكانٍ يفترض أن أمارس فيه حريتي المطلقة، فما بالك إذا كان رجل أمن؟ أنا ما دخلت البار إلا لأزيل هالة الكآبة من على الفكر والقلب، لأريح ذاتي، وأستلطف نفسيتي بكأسٍ من الجعة.

كان واقفًا في الظل، تنعكس على وجهه أشعة خافتة، متذبذبة، هجستُ به كلوحة جدارية ترتع بقبح الصفات، من تبجحٍ وجسارةٍ وغثاثة. ومن خلال ملاحظتي خلال فترة وجودي،

بـدا لـي أننـي الوحيـد الـذي يهـتم بشـأنه، صـرت أراه بضـني وضـميري وخيـالي، تـراءى لـي يتحـرك فـي مكانـه مـع موجـات فكـري المضـطرب، يراقـب حركـاتي، يسـجل ملاحظاتـه، ربمـا لكـوني جديـدًا علـى المكـان، وربمـا لأنـي غريـب، فظـن أننـي لـص أو مجرم، هكذا قرأت فكره.

هكـذا خُيّـل إلـيَّ ذلـك الشـرطي، دخـل مـع دخـولي البـار، ليقـف فـي زاويـة المـدخل، يتجسـس علـى سـلوكي ومجـانتي. فـي البدايـة شـعرت بضـيقٍ نفسـي شـديد، ثـم مـع الوقـت تناسـيت وجـوده، وأقحمـت ذاتـي فـي تجربـة التغييـر التـي وددت بهـا أن أفـك كربـي، فلـم أجـد طريقـة أنجـد بهـا نفسـي المريضـة مـن مخمصـة التفكيـر السـلبي الـذي لازمنـي ومـاحقني، سـوى أن ألجـأ إلـى البـار الـذي صـادف وجـوده أمـامي. لكـن وجـود ذلـك الشـرطي نغّـص رغبتي.

قـررت أن أسـتمر فـي غيـي، غيـر آبـهٍ بـذلك الشـاخص أمـامي، أهملـت وجـوده، وتناسـيته، وصـرت أحتسـي الجعـة دون مبـالاة. كأسًـا تلـو كـأس، حتـى ثملـت، حتـى تراخـت سـاقاي، وخَـلَّ الجسـد تماسـكه. حتـى فـضّ المـخ شـحنات الهـم والغـم، وتخلـى عـن كـل شـاردة وواردة دخلـت صـفحاته. صـارت الـذاكرة ككويكـبٍ يـدور فـي فـراغٍ لا يحتـوي سـوى صـور زوجتـي، وهـي تبعـث بإشـارة استغاثة من بعيد.

أضـحى فضـاء مخيلتـي معرضًـا لصـورها، كتلفـاز يتقلـب بصـورها؛ خلتهـا تمشـي معـي، تضـحك، تمـازحني، تلاعبنـي. أدركـتُ خـيط الجنـون، كأنـه أرشـدني إليهـا، حثنـي علـى مناداتهـا،

لأخطفها من يد القدر. أجيلها من عبث تلك الوجوه العابسة من حولي، الذين لا أفقه لغتهم ولا أطيق سقمهم وشعوذتهم.

تماهت صورها بسدم الفراغ، بتُّ أبحث عنها في صحف الأمس. كنت أدرك أنني أبحث عن المستحيل، حيث غارت الأمور في لجم العقد، بسبب شساعة الفراغ المحيط بي. فراغ يؤطر فراغًا، داخلي وخارجي، والذهن مشتت، لا يطمر الذاكرة سوى اسمها، تلك التي تركت ندبًا من الشك في قدرتي على تخطي عجزي ونيل مرامي.

هكذا صرت أدور في متاهة من العبث والجنون، في ظل مراقبة الشرطي الماثل أمامي دون هوادة. أدور في معمعة لا أعرف كيف أخرج منها، لأقطع الشك باليقين، وأعيد ذاتي لأجواء ما قبل الهجرة، أو ما قبل السكر.

انهمكتُ بشيء لا أعرف له اسمًا، صورة غامضة لا أستطيع تحديد ملامحها، كضوءٍ يتراقص أمامي، كطائرٍ الستل العملاقٍ ينهش وجودي وتأريخي. صورة مختلقة من ألوان عبثية، لا تبرز فيها سوى خطوط شك داكنة، جعلت فكري يضمحل في طياتها، ونقلتني من عمقٍ إلى عمقٍ أظل، بحثًا عن يقين، عن عالمٍ حرٍّ يأويني.

تشبثت بذلك الوهم مضطرًا، راغبًا في الخروج من قوس الشك المعتم، للعودة إلى عالمي الحقيقي. حسبت نفسي عائمًا في مدٍّ من الفراغ، كطائرة ورقية، أطير في أجواءٍ عاصفة، لا

أدرك حقيقة قدري، ماضيًا بصمتٍ في سدم السكون، لا أسمع سوى همسٍ يأتي من خلف حاجزٍ خفي، يدعوني لاتباعه.

خرجت من البار متأبطًا صبري، متبعًا ظني خلف هاجس حبيبتي. اصطدمت بذلك الشرطي الذي هجست به يراقبني، تحسست جسده، فلم يكن سوى ستارة جانبية يعتليها مصباح فلورنسي خافت، تتحرك مع الريح، بدت لي كشبحٍ تحت الأضواء المتداخلة.

خرجت دون وعي، دون أن أدفع قيمة المشروبات. ما إن مسكت ذيل الشارع حتى تبعني النادل، يناديني بأعلى صوته، دون أن ألتفت إليه. لحق بي على أول الرصيف، صار يكلمني بلغة لا أفقهها، للغيلان الذي ركب أدراج مخي، ولعدم فهمي للغته.

كنت قد تركت عالمي الواقعي، أبحر في عالم المجون، مبتسمًا في وجهه، فاقدًا للوعي، لا أفقه ما يدور حولي. تحسست يده حين دسها في جيبي، أخرج محفظتي، سلت منها ما سلت، ثم أعادها الى سترتي، ثم دلقني بيده. لا أعرف كم كان معي من نقود، وكم سلب مقابل مستحقاته.

هم بائعو الجور والذمم، يستغلون من هم على شاكلتي، يسرقون ما تطاله أيديهم. لم أدرك ذاتي إلا بعد عودتي للمنزل، لا أدري كيف عدت، وجدت المحفظة تصفر، خالية إلا من هويتي وبعض اليوروهات. ربما أخذ أضعاف القيمة،

فهم يستغلون المتعاطين، ومن حقهم ذلك، فمن الذي أجبرهم على صرف تلك المبالغ في المباغي والبارات؟

أيكون الإنسان إنسانًا وهو يبحث عمّا يجعله حيوانًا؟ أيكون ذا عقلٍ وهو يشتري وجع رأسه ودوخته بالمادة التي يعيش بها؟ وما جدوى أن يسكر الفرد ويرمي مصروفه في قنانٍ تفقده كرامته وشخصيته ومذهبه؟

تراخت أعضاء جسدي، صرت أمشي في الشارع دون يقين، أهجس بساقي تطير فوق الرصيف كغزالة تهزع بحقول خضراء. الأرض تهتز تحت قدمي، شعرت بنشوة مطلية بالسخط، وهوانٍ يركبني بشيء من الحسرة.

وأنا ماضٍ في طريقي خلف هاجس صوتٍ يطنب أذني، وجدت ذاتي تنحدر خلف فتاة آية في الجمال، وكأنّ الصوت آتٍ من لدنها. كان اليأس يدفعني لاحتضان حبيبتي قبل أن أحتضر، فتبعت خطواتها، هجست بذاتي مأمورة من شيطانٍ تلبسني وأغواني.

بدت لي بألق زوجتي، ترتدي قميصًا مقورًا من الظهر، كاشفة فتنة المتن. ظننتها زوجتي، ميزتها من الخال على كتفها، ومن طراوة قدّها. تبعتها، ففاض بي الشبق لمعانقتها.

تبعتها لمسافة لا أعلم مداها، كانت تمشي بخطوات أسرع، كأنها تهرب مني. تخيلتها هكذا، كأنها هجست بريبة، فتخطتني

بسرعة. كنت أمشي بساقين وكأنني أمشي بعشرة، أهجس بذاتي تطير في الهواء، لكنها سبقتني.

أهفو خلفها بخطوات متأرجحة، حتى أوقفها عارض عبور الشارع. انتظرت الإشارة، أدركتها وأنا مجهد، العرق يتفصد جبيني، ترطب تلبيب القميص، ربت على كتفها وقلت:

ـــ ما بك يا صدف؟ لِمَ تهربين مني؟ ألستِ زوجك؟

شنفتني بعينٍ شزرة، ثم صفعتني بكفها وقالت بكبرياء:

ـــ ألا تكف رعونة أيها المراهق؟ امشِ من هنا يا لغوب، يا مجنون، يا سكران، يا تافه...

بقيت صاغرًا، أتمعن في ملامحها بعينين غضنتين، دون أن أنبس بشفة. صفعتها أزاحت غشاء الوهم عن عيني، أعادتني إلى عالمي الواقعي. اكتشفت أنها ليست زوجتي، ولا تشبهها، كل الخيال تبخر، تماها كدخان في مهب الريح.

بصفعتها عدت إلى رشدي، صرت أرى الأمور على حقيقتها، الصورة تتضح رويدًا رويدًا، كعدسة كاميرا اختل زومها. تبين أنها عجوز، شمطاء، تتشابك خطوط السن في وجهها، ساقاها كعكازتين، ترتدي معطفًا وشالًا، لا قميصًا مقورًا.

ما أزعجني عباراتها: مراهق، لغوب، مجنون، سكران، تافه... كانت تفقه العربية، ربما من أصول عربية. لا أدري لِمَ

نعتتني بذلك، هل لأني كنت ثمِلًا؟ أم فعلاً كنت مجنونًا وتافهًا في نظر الآخرين؟

أحيانًا لا يدرك الإنسان انحداره إلا حين يصدم بموقفٍ مغاير، يرتد إليه وعيه، ويلتمس الحقيقة التي لا يراها. أحسب نفسي كانت تائهة، فلم أتحسس الموقف إلا لحظة الصفعة.

وقفت على دكة الصمت، أدقق في وجهها بعد أن أوقفت غيي. رغم أن يدها كانت ترتجف، إلا أن صفعتها كانت ثقيلة، أوقفت نزف شرودي، نقلتني من الخيال إلى الواقع.

أخذت زمنًا وأنا شارد الذهن، ربما أكثر من حقه، وحينها كانت قد غادرت، ابتعدت.

2021 /09/10

الجمعة

18- فكرة عمياء

لم أهجس بالاستقرار قط طوال سنين الهجرة. كانت فكرة الهجرة عمياء، صماء، بلا مرونة، تركتُ المساء خلفي ودخلتُ عنق الزجاجة، في منطقة دجنة، كمجنون تائه، أسير، أخرس، أتبع ومضة حلم غائر في عمق البحر، في ذلك السكون الممتد بين العين والبصر حتى العتاهة، باحثًا عن لغز الاستقرار الذي لم أكتشف أسراره، ذلك الذي هفا ومضه وتماهى في سدم الزمن؛ حتى لم أعد أذكر تفاصيل الحلم الذي تبعته.

سرحت كثيرًا خلال هوسي وخيالي، كأنني أربيتُ الفكرة. ومع مرور الأيام، كبر مخزونها، صارت حقبة لا تنضب، شغلت فكري وظني. حينها قلت لنفسي: مهما عبثتُ بها، فلن يشف مخزونها، حتمًا ستوصلني إلى بر الأمان، ستمنحني استقرارًا أتأمله.

حملتها على كتفي كطفلة، درت بها الأروقة والأزقة والطرق، اعتنيت بها، حافظت عليها من الشر والحسد ومما خلق. جعلتها شريكة حياتي، سر سعادتي، نبضة فؤادي، وضوء الحدق. شبهتها بصحن القمر في ليلة الزبرقان، زبرج يلمع في عين الحالم النعسان. أودعتها مكانًا آمنًا داخل كتبي وخزانة ذاكرتي، جعلتها طوع إرادتي، طوع غايتي ومرادي، طاوعتني، دخلت في ظني ويقيني؛ حتى استقرت في حقيبتي.

كبرت الفكرة، أضحت عديمة اللون، شفافة، لماحة، أشبه بفتاة عشرينية بتول، مغنجة بالفتن، لما رق بها من سحر ووضوح، لما رغ بعرفها من حس وخيال. كبرت بسرعة الأحداث، طاوعت ظرف الوطن. كان لا بد من الأخذ بها قبل أن تشيخ وتتلف. شعرت بها وهي في مقتبل العمر كفكرة مكتملة، جاهزة، تشكلت ملامح وجهها بصورة عجوز وقورة ذات خبرة.

وهنا أسأل القارئ العزيز:

يا ترى، إلى أين سأصل بتلك الفكرة اللعينة التي شغلتني، وحرفتني، وأبعدتني عن حبيبتي طوال سنوات من الشد والجذب والصبر والعناء؟ هل أفلح في الوصول إلى نتيجة مع ذوبان جليد الصبر؟ ما القرار الذي كنت ستتخذه لو كنت المعني في هذه الرواية؟

في البداية، تمسكت بالفكرة، التمست فيها البهاء. ما أن أبتسم، تتحول إلى فسيفساء من أطياف وأمل، وما أن أحزن، يكش جلدها؛ يغشيها الأرق والعناء، فتتلون بألوان الشك والريبة. أحيانًا أهجس بها طفلة، وأحيانًا عجوز شمطاء، وأحيانًا فكرة مجنونة متمردة هجينة في أعماقها. لا أستطيع تفسير شرودها وجنونها، فتصبح قتيمة، رمادية، بلون السقم. وأحيانًا تزهو مع طلوع الفجر بألوان الورد والياسمين وولادة السحر.

صارت تلك الفكرة رفيقة حياتي لما فيها من فتن. أركبها كيفما أشاء، ألعب بها، أدور حولها وتدور حولي بشيء من الألفة والرجاء. لذا، عندما قررت السفر، أخذتها معي لتعينني على ضعفي وغشمي، وضعتها تحت وسادتي كي لا تشغلني أفكار أخرى، جعلتها شريكتي وعشيقتي، أُداعبها، أتغزل بها، أتسلى بها.

ما أن ركبت راحلتي واتخذت من موضع النجوم دليلي، سرت بها أتبع الحلم الذي أودعته في فؤادي. قررت أن أركب قطار الحلم، فقطعت الفيافي والبراري دون توقف، بعيدًا عن مقررات الزمن، كأنه دار بي وأعادني إلى موضعي الأول الذي كنت أقف عليه قبل السفر، بعد أن قطعت شوطًا في تلك السنين العجاف. تركني مهزوزًا، ضعيفًا، مهزومًا، بعد أن كلّ العمر والقدم.

في رحلتي، شعرت بأني في منفى. وجدت من الحكمة أن أستعين بالفكرة، تأملت أن تجود عليّ من جودها، من خير أألفه. وددت تصريفها، تحويلها إلى واقع حتمي يحميني، يعيد إليّ توازني. درت بها بين العملاء، رغبتُ ببيعها على العازفين والنخاسين وأصحاب التراث والبنوك والمتاحف وثلة المحامين الدجالين الذين دقوا مسامير خبثهم في نعوش أجسادنا. جلت بها الدروب دون أن يلتفت إليها أحد، وصفوها بالفكرة العميماء التافهة الغبية. كأنني خُدعت بها وخُدعت بذاتي.

حاولت تسليك أمري دون جدوى، دون أن أجد من بقائها حكمة. في آخر المطاف، قررت بقرها واستكشاف معدنها. وما أن بقرتها، حتى وجدتها فكرة خاوية، ليس فيها سوى فراغ كبير سلبني ذاتي، تلبّس ظني ويقيني، صرت جزءًا من ذلك الفراغ، أو بالأحرى صار ذلك الفراغ هو عالمي الذي تلاعب بي.

هجست بذلك الفراغ وقد ركب ظني، أحاطني بجهل، نخر عظامي، نهش صبري، لم أعد أميز بين لوني ولون القدر المكتوب في أسفاري. ذلك العبث دفعني إلى أخذ المبادرة والمجازفة بترك زوجتي وحيدة، صبرها وعنائها.

كبر الفراغ يومًا بعد يوم، زادت غمقته وعتمته، وسّع نطاقه الكون بأسره، بلع الكواكب والمجرات في جوفه، تجاوز محيطي وكياني، لوى فكري وذراعي.

مع حجم الصخب العائم في أروقة الفكر، صرت أشبه بلوحة باهتة لا تبرز فيها فكرة. حاولت أن أسرع بخطاي، لأتجاوز الهنة التي جزلت صفاتي دون مقاومة. حاولت أن أشغل بالي بأمور ثانوية لأدرك ذاتي، لأداري حالتي النفسية المرهقة. ذاتي التي برحت تسوف ذاك العصف بمحجر العين، أصفرت وذبلت أوراقها، أغشاها الخريف، انحدرت نحو الثقب الأسود بعد أن فضّت مخزونها من الألق.

هكذا ركبت مركب المجازفات، فقدت ميزة الصبر والتحدي، تبخر الحلم على عجل، صار دخانًا ينفث من كوة الصبر، وأنا

أجر عربة الخيبة في دروب الضياع خلف خيط أمل ماءٍ في الفراغ.

صار الفراغ في جوفي يولد من فراغ، بدا الأمر في تناسخ مستمر، حلقات تركب بعضها. أحاطتني وكبلتني بدوائر متداخلة، ما أن أفتك من إحداها حتى أسقط بقبضة أخرى، ما أن أجتاز فراغًا؛ حتى أسقط في كوة أكثر سعة وشساعة، كصيغة دهمة، دغمة، لا أستطيع تفسير وجودها. هجست بذاتي كحجر سقط في بحيرة ساكنة تلتف عليها الدوائر.

ما انفك الفراغ يتكور حولي من ذرات الصمت والسكون، بل صار يتكاثر كالحشرات، بالانقسام والانشطار والتسافد باللحظة، يدور فوق رأسي كهوام الصيف. أمسك بالقلم محاولًا أن أرسم له صورة تعيدني إلى موضعي الأول، أو أن أرسم سهمًا أو جنونًا أو قيودًا ألهي بها فكري، أود ملء ذلك الفراغ بنشوز ونشور أفكاري دون أن أجد لذاتي منفذ خلاص أو حكمة لاجتياز تلك المفازة التي أوهنتني.

منذ لحظة وداع زوجتي، وجدت ذاتي حبيسة الوهم، هميمة، وهي تجول في مهاوي البحث عن استقرار بين براثن القدر. منذ تلك اللحظة، التفت خيوط الفراق على عنقي، جعلتني أفتقد مبدأ الخطوة، صارت الحالة تحتاج إلى فطنة ودهاء في ترتيب الأوراق. كبلتني في متاهة واسعة من الصمت المخيف، دون أن أستطيع تجاوز شبكة العقد التي تمطّت كثيرًا في در

المؤلف : عباس مدحت البياتي

النهاية

للكاتب عشرات الكتب بين رواية ومجموعات قصصية

المجموعات القصصية:-

1- فرصة هدف
2- عصير الرمان
3- لغة العود والحجر
4- زيارة طبيب
5- كرستال
6- الانتقام

مجموعة الروايات:-

1- لغز اللؤلؤة
2- فتاة الكاظمية
3- جنوح النفس
4- عبير
5- شذرة العقد
6- طريق الجحيم الى الجحيم
7- غراب البين
8- عقاب الذات
9- الاقداح المتكسرة
10- عواصف الجنين
11- الفراغ
12- القمة
13- المجموعة الكاملة الجزء الأول
14- المجموعة الكاملة الجزء الثاني